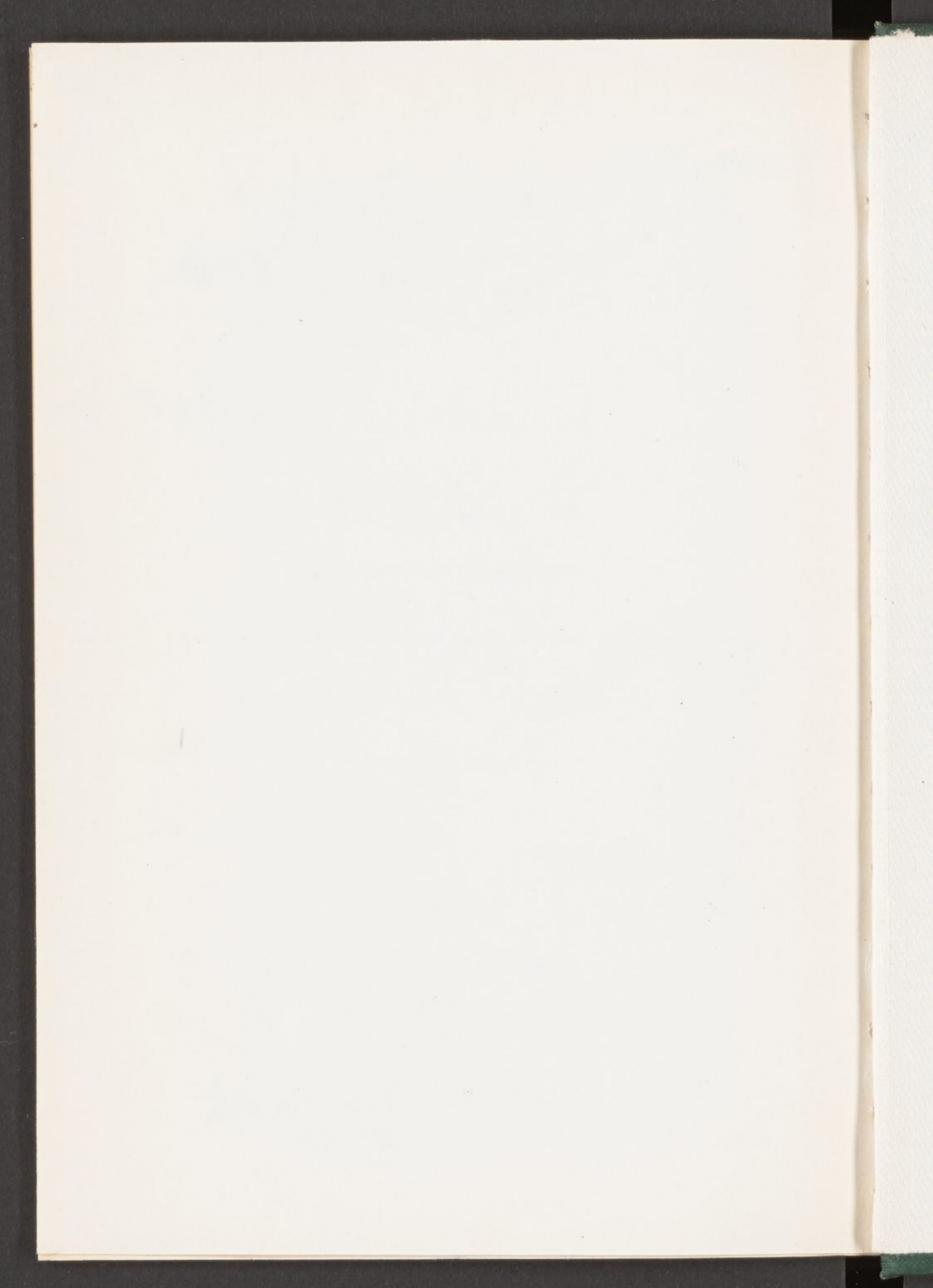
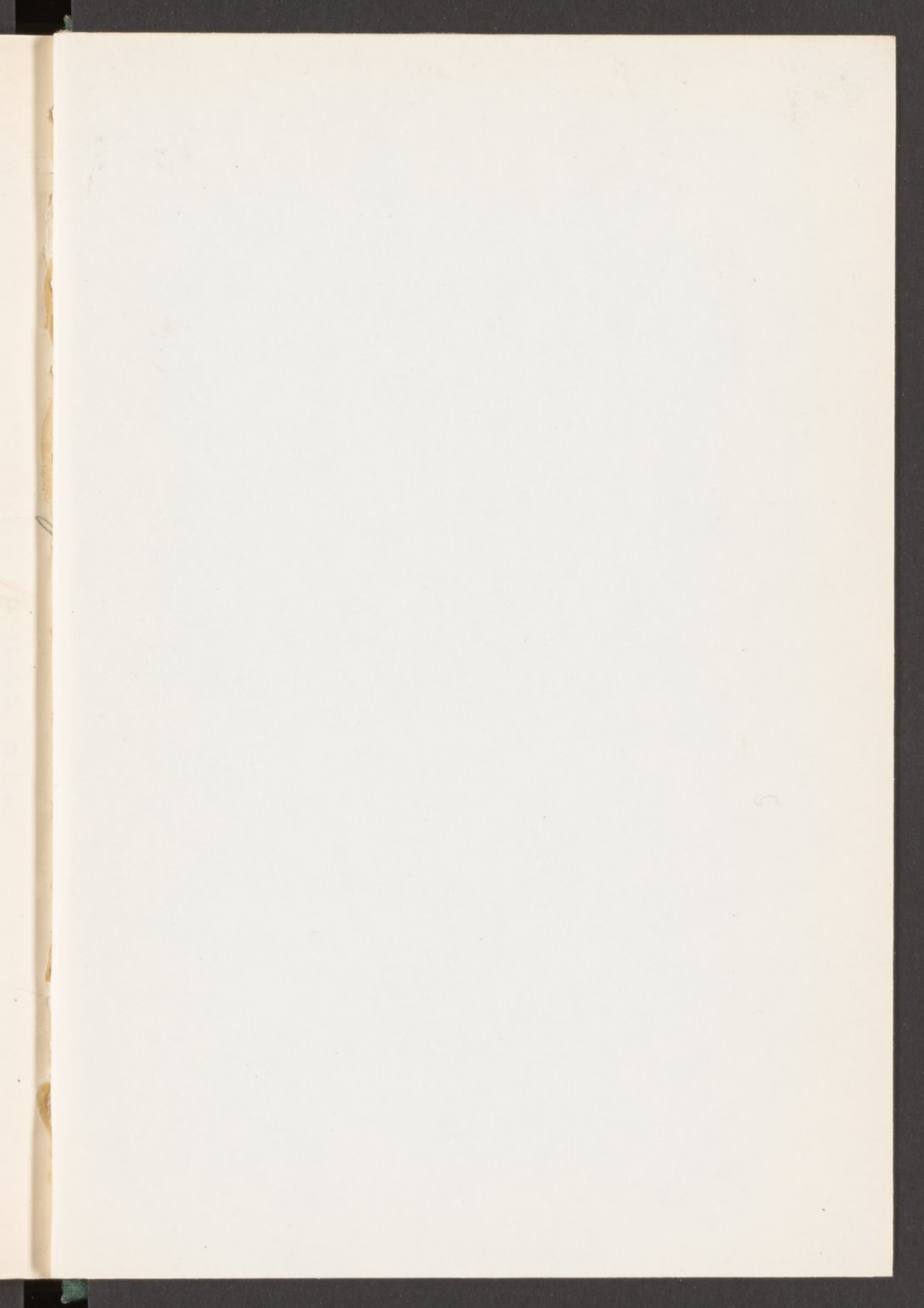
أبو الحسن علي الحسني الندوي

المسلمون في الهند

مكتبة دار الفتح بدمشق





al-Nadwi, Abū al-Hasan ʻAlī al-Hasanī

المسلمون في الهند

al-Muslimūn fī al-Hind

ابو الحسن علي الحسني الندوي

عضو المجمع العلمي العربي بدمشق

و

معتمد دار العلوم ندوة العلماء بالهند

نشر وتوزيع

مكتبة دار الفتح بدمشق

شارع سعد الله الجابري

ص. ب. ٤٧٥

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم لكتاب للاستاذ علي الطنطاوي

ما طلت الناشر بهذه المقدمة ثلاثين يوما ، أبتغي بها ساعة صفاء والهام ، فلما ضاق الوقت ، وبدأ الطبع ، كتبتها على عجل في ثلاثين دقيقة .

كنت أريد أن أجعلها صفحات من الفن البارع الاصيل ، فجاءت سطورا من الذهن الخامد الكليل .

وكنت أريد أن أودعها خلاصة ذكرياتي عن الهند وأن أصب فيها كل ما في نفسي لاخي وسمّي أبي الحسن ولكنها صادفت أيام الانتخابات ، التي جاءت بها هذه الثورة الموفقة ، وما تتابع عليّ من مشاغل ومشاكل ، أرهقت جسدي ، وأتعبت قلبي ، وفرقت المجتمع من فكري ، وأثقلت القلم في يدي ، فحرن عليّ وقد كان العهد به أن يجري جريان فرس السباق ، وكبا في اول الحلبة ، وقد كان (ولا فخر) سباقا الى الغاية ، فعدت وكأني من العيّ لم أسود به من قبل صحيفة ، ولم أخط به سطرا .

فيا أخي أبا الحسن ، ويا اخوتي القراء ، معذرة .

ويارب غفراً .

ومثل أبي الحسن لا يحتاج الى أن يقدم كتابه الى القراء

أحد ، أن اسمه عليه يغنيه عن كل تنويه به ، ولكنه أرادأن يوليني هذا الشرف ، وأن يقرن اسم العليين معا باسم المسلمين في الهند دليلا من الادلة على أن الاسلام يجمع الاخوان ، وان تفرقت بهم البلدان ، وان كان هذا الامر لايحتاج الى دليل •

••••••

ولقد كنت أعجب حين أقرأ لأبي الحسن ، فأجد لرجل من الهند هذا الاسلوب البليغ ، وهذه الاصالة وهذا الطبع ، ثم زال العجب لما ظهر السبب ، وعلمت أن أبا الحسن عربي صريح صحيح النسب كالاصبهاني مؤلف الاغاني ، والابيوردي الشاعر ، وهما قرشيان امويان ، والفيروزابادي صاحب القاموس ، وان خبر عربيته متواتر مستفيض في الهند ، فمن هنا جاء هذا البيان الذي قل نظيره في هذه الايام •

وقد يشتغل غير العربي بعلوم العربية ، حتى يكون اماما فيها ، في اللغة والنحو والصرف والاشتقاق ، وفي سعة الرواية ، بل ان أكثر علماء العربية كانوا (في الواقع) من غير العرب ، ولكن من النادر ان يكون فيهم من له مثل هذا (الذوق الادبي) الذي تعرفه لابي الحسن • فلو لم تثبت عربيته بصحة النسب ، لثبتت بأصالة الادب •

واذا كان الدليل على ذوق الاديب اختياره ، فحسب القراء أن يعلموا ، أننا عرضنا من أمد قريب كتب المختارات الادبية ،

لتخير واحدا منها نضعه بين أيدي تلاميذ الثانويات الشرعية في الشام ، وذهب كل واحد من اعضاء اللجنة ، وكلهم من الادباء ، يبحث ويفتش ، فعدنا جميعا وقد وجدنا أن أجود كتب المختارات المدرسية ، وأجمعها لفنون القول والوان البيان ، مختارات أبي الحسن .

ولقد كنت أتمنى من قديم أن نخرج بتلاميذنا من هذا السجن الضيق المظلم الذي حشرناهم فيه ، الى فضاء الحرية ، والى ضياء النهار ، فلا نقتصر في الاختيار ، على (وصف الكتاب) للجاحظ ، وهو جمل مترادفة ، لا تؤلف بينها فكرة جامعة ، ولا يسدّها روح ، ولا تخالطها حياة ، وعلى ألاعيب ابن العميد ، وغلاظات الصاحب ، وهندسات القاضي الفاضل ، فننفر التلاميذ من الادب ، ونكرهه اليهم ، وكنا نقول لهم ان البيان الحق عند غير هؤلاء ، وأن أبا حيان التوحيدي أكتب من الجاحظ ، وان كان الجاحظ ، أوسع رواية ، وأكثر علما ، وأشد تصرفا في فنون القول ، وأكبر استاذية ، وان الحسن البصري أبلغ منهما . وان ابن السماك أبلغ من الحسن البصري [1] .

وان النظر فيما كتب الغزالي في الاحياء ، وابن خلدون في المقدمة ، وابن الجوزي في الصيد ، وابن هشام في السيرة ، بل

---

(١) قد تبدو هذه الاحكام غريبة على من ألف التقليد في الادب وعكف عليه ، ولكنها حق ، كما ان من الحق أن أبا تمام اشعر من المتنبي وأعظم .

والشافعي في الأم ، والسرخسي في المبسوط ، أجدى على التلميذ وأنفع له في التأدب ، من قراءة حماقات الصاحب ، ومَخرَقات الحريري وابن الاثير .

وكتبت في ذلك مرارا ، فما التفت الى ذلك أحد ، فيئست منه ، حتى وجدت كتاب أبي الحسن ، فاذا هو قد نفض كتب الادب والتاريخ نفضا ، وحرثها حرثا ، فاستخرج جواهرها ، فأودعها كتـــابه .

ولست أقول أني أنا صاحب الفكرة ، أو أنه أخذها مني .. لا ، ولعله (وهذا ما أرجحه) ما قرأ شيئا مما كتبت أنا ولا غيري في هذا الموضوع ، ولكنه الذوق الادبي المرهف ، والطبع العربي الاصيل .

وأبو الحسن استاذ في فنون كثيرة ، في الكتابة ، وفي البحث وفي التاريخ ، وفي الدعوة ، وفي الفقه والنزاهة والتخلق بأخلاق العلماء ، وهو فرع كرم من أصل كريم ، أبوه مؤرخ الاسلام في الهند ، واخوه من صدور الاطباء والعلماء ، وأسرته اسرة شرف وعلم ، وهو احد اركان ندوة العلماء ، واليها نسبته . ونـــدوة العلماء ، أجل من أن نمر بها مرّا ، ولا بد من وقفة عليها ، لنعرف بها من لا يعرفها ، من القراء .

ولقد رحلت من سنوات رحلة قطعت فيها في الذهاب والاياب ، أكثر من ثلاثين الف كيل ، مشيت فيها من دمشق الى سورابايا

(في آخر جزيرة جاوا) ودخلت فيها كثيرا من المدن الكبار ، فما رأيت في ذلك كله موضعا تمنيت من اعجابي به ، أن أقيم فيه ،الا مدرسة الندوة ، في لكنو .

وما أدري لم شبهت لكنو بدمشق ، واحسست وانا فيها كأني في بلدي ، أمن أنهرها ، وكثرة بساتينها ؟ أم لاني أحسست فيها من كرم أبي الحسن كأني في موطني ، وبين أهلي ؟

ولقد كانت كلكته أول مازرنا من بلاد الهند ، مررنا بها في طريقنا الى الشرق الاقصى ، وفي عودتنا منه ، وكلكتا مدينة عظيمة ، ربما كانت خامسة مدن الارض ، كثرة سكان ، لان فيها كما قالوا خمسة الاف الف ، وخمسمئة الف ، ولكنها بلدة كئيبة قديمة ، وخرجنا منها فقطعنا عرض الهند الى بومباي وبومباي من أجمل بلاد الدنيا واكبرها ، لها ساحل متعرج يدخل فيه البر في البحر ، والبحر في البر ، فلا ترى الا رأسا بارزا أو خليجا والجا ، أو برزخا معترضا ، وعلى الساحل جبل قائم ، يلبس حلة من غرائب الاشجار ، وعلى ذروته حديقة معلقة ومقبرة مغلقة ، هي احدى عجائب الزمان لانها لقوم من مجوس الفرس ، لا يدفنون امواتهم مثلنا ولا يحرقونهم كالهندوس ، بل يعرضونهم للطير والحيوانات تأكل لحومهم حتى تذهب بها كلها .

وفي بومباي العمارات الكبار التي تجمع الجمال والجلال ، ثم رجعنا منها الى دهلي ، ودهلي مدينة عظيمة يحس من يدخلها انه

في بلدة اسلامية ، من كثرة مساجدها وقبابها ، وفيها المسجد الجامع وهو من أعظم مساجد الارض اليوم ، وامامه القلعة الحمراء، وهي درة من درر العمران على الارض ، بناها شاهجان باني (تاج محل) اجمل ابنية الدنيا بلا جدال .

فما احببت من ذلك كله بلدا ، ولا من بلدان جاوا (جنة الارض) مثلما احببت لكنو .

وكنا كلما دخلنا في رحلتنا بلدا ، نجد من يستقبلنا فيه ويدّلنا ، وكنا نرقب ان نجد (لكنو) من الرعاية والعناية ، ما لم نجده في غيرها ، لانها بلد الصديق ابي الحسن ، فنزلنا من الطيارة مطمئنين (وكنا اثنين أنا والاستاذ الجليل بركة العصر الشيخ امجد الزهاوي شيخ علماء العراق) ، فتلفتنا فلم نر احدا، فضاق صدر الشيخ فطمأنته ، وكان الركاب قليلا ، فتمت (المعاملات) في نصف ساعة ، ورحنا الى السيارة لتحملنا الى البلد ، وما رأينا ابا الحسن ولا احدا من جماعته فغضب الشيخ وحرت أنا ماذا أصنع ، لاني لا أعرف (ولا الشيخ يعرف) كيف نخاطبهم ، فعمدت الى الاشارة وهي لسان من ليس له لسان ، ولغة الخرس جميعا في كل عصر ، وقرنّا بها الكلمة التي تفهم في كل مكان : كلمة (اوتيل) ، ففهموا منا واشاروا الى السيارة .

واخترقت السيارة البلدة ، ثم خرجت منها ، وصرنا بين البساتين ، فشككت واعدت على جاري في السيارة كلمة (الاوتيل)

وقلبت كفي اشارة السؤال ، فهز رأسه ورطن بما لم أفهم ، واشار الى قدام ، ففهمت ان الفندق امامي •

ووقفت السيارة في مكتب الشركة وكان في فندق فخم ضخم ، من أفخم وأضخم مارأيت من الفنادق ، اسمه فندق كارلتون وله أجنحة طويلة تظللها بواسق اشجار الهند ، تقفز عليها القرود من كل نوع ، تلعب وتتقلب وتخطف ما تصل اليها من الطعام ، وهم لا يمسونها لانهم يحرمون قتل الحيوان ، تطل غرفه على بحر من الخضرة ،فيه الاشجار الكبيرة المزهرة ، التي لا نعرف مثلها في بلادنا ، وكل غرفة منها بمقدار شقة من دار ، فيها الفرش الغالي ، والاثاث الثمين ، وفي كل غرفة مرافقها كلها ، فنزلنا فيه ، ولكنا كنا فيه كالمسجونين ظلما ، لانعرف ماذا نصنع ، ولا ندري أين نتوجه ، ولا نجد من نسأله عن ابي الحسن •

وهطلت الامطار ، لا كالامطار التي نعرفها في بلادنا ، ولكنها قرب تنصب ، وسماء تنفتح ، فتضع في دقائق ، مالاتضعه أمطارنا في ساعة ، واستمرت الى الليل ، ثم وصلت الليل بالنهار ،والنهار الثاني بالليل ، والليل الثاني بالنهار • ولبثنا على ذلك ثلاثة ايام ، ونحن محبوسون في قصر انيق جميل المنظر ، بارع البنيان ولكنه كان علينا سجنا ،والسجن لا يُحب مهما كانت حاله،وضاق صدر الشيخ حتى فكر في السفر ، ولم أجد بدّا من أن أذهب تحت هذا

المطر ، فابحث عن مخرج ..

وركبت سيارة اجرة وجدتها في الفندق . وقلت له : الى ندوة العلماء ، فلم يفهم عني ، فقلت بمقدار ما اعرف من اللفظ الانكليزي : اني أريد مدرسة اسلامية ، فلم أفلح في افهامه ، فأشرت اليه ان يمشي ، فمشى وجعل يدور في الشوارع والعداد يسجل وهو يلتفت الي ، فأشير اليه أن يمشي ، لعلي أرى من أتوسم فيه أنه مسلم فأسأله ، وقد كان ذاك ، فوجدت شابا وقفت السيارة وسألته ، فأجابني ، واسترشدته فأرشدني .

وما قلت له : السلام عليكم . وقال : وعليكم السلام ورحمة الله ، وما علمت انه مسلم ، حتى شعرت بمثل ما يشعر به الغريق ، وجد من ينتشله من الماء ، والمختنق وجد الهواء ، وفرح هو بي فرح الاخ يلقى اخاه بعد طول الغياب ، وهذه هي اخوة الاسلام ، التي عقدها الله ، فلا تقوى على حلها يد بشر . وحدثني انهم كانوا يتوقعون قدومنا بالقطار ، فكانوا يخرجون كل يوم الى المحطة فاذا لم يجدونا رجعوا ، ما توقعوا ان نجيء في الطيارة .

ومشى بي ، في شارع رحب ، على كتف نهر عظيم ، يقابله من هناك شارع آخر ، وكانت الامطار قد انقطعت فجأة كما هطلت فجأة ، فنظرت فاذا على الجانبين ، منظر من امتع ما خلق الله ، حتى انتهينا الى ارض منبسطة خضراء ، في وسطها بناء جميل ، كأنه قصر من قصور الاندلس ، ووراءه بنى متفرقة ، في

ارض واسعة ، في بقعة هادئة ،فيها الاشجار المزهرة والمثمرة ، والسواقي الجارية ، قال : هذه هي مدرسة ندوة العلماء ،وتلك الابنية تبع لها ، وهذه الارض كلها ملكها .

فدخلت فوجدت الاستاذ ابا الحسن ، فلما رآني ، وثب هو وتلاميذه الي يسلمون عليّ ويكلمونني ، وكلهم يحسن العربية كلاما وقراءة ، حتى الصغار منهم ، ولقد وجدت طفلا اسمه عبد المحسن لا يكاد يحسن النطق بلسان قومه وهو يحسن مع ذلك لسان القرآن ، ولعله قد كبر الان وغدا من طلبة العلم فبلغوه ، وبلغوا الاستاذ أحمد الرابع دليلي في لكنو سلامي .

وشعرت كأني في مدرسة شرعية من مدارس دمشق ، وتيقنت لما رأيت مناهج الدرس ، وكتب الطلاب ، ان القوم ماشون على الجادة ، فليس عندهم تفرنج (جامعة عليكره) التي صارت كواحدة من جامعات اوربة ، وليس عندهم جمود (مدرسة ديوبند) وهي أزهر الهند ، ولكنهم يأخذون بالنافع من ثقافة الغرب ، مع الحفاظ على ثقافة الاسلام ، كالدار القائمة على السفح ، تترفع عن وخامة السهل ، وتنزل عن وعورة الجبل ، وخير الامور الوسط .

وكنت حين أقرأ أسماء هوءلاء الاعلام ، سليمان الندوي أعلم علماء السيرة في هذا العصر ، وأحد أعاظم المؤلفين فيها على مدى العصور ، ومسعود الندوي رحمه الله وأبي الحسن الندوي ،

وتلاميذه ، محمد الندوي ، واجتباء الندوي فكنت أظن أنهم أبناء اسرة واحدة ، ثم علمت انهم انما ينتسبون الى الندوة ، وانها هي أسرتهم وان صلة العلم والادب أقرب فيهم من صلة القرابة والنسب .

••••••

عشت في الندوة اياما ، ذقت متعة النظر ، بمنظر نهرها وبساتينها ، وراحة الاعصاب ، بهدوئها وسكونها ، ولذة التفكير، بالرجوع الى مكتبتها ، وعَبَبْتُ السعادة عبا بصحبة هؤلاء الاخوة الكرام ، المسلمين حقا ، الطيبين المخلصين ، الذين احسست وانا معهم كأني رجعت الى التاريخ ، فعشت مع المسلمين في الصدر الاول : اساتذة الدار وطلابها .

وقلت ، هاهنا المقيل ، فياليتني أحط هاهنا الرحال، وياليتني أعيش هنا ، وماذا ابتغي فوق ما أجد فيها ؟و هل بعد هذا المنظر الجميل ، وهذه المكتبة الحافلة ، وهؤلاء الصحب الاخيار ، وهل بعدجوار أبي الحسن في بلده ، متعة تبتغى أو نعمة تطلب .

ان في الندوة لذات الدنيا ، وحسن ثواب الآخرة ان شاء الله والذين يعرفون أبا الحسن كثيرون ، ولكنهم رأوه في سياحاته ، فعرفوه من أدبه وكتبه ومحاضراته ، اما انا فعرفته في بلده فعرفت كيف يكون برّ الصديق ، وعطف الاخ ، وكرم المضيف .

••••••

وانا اكتب هذه المقدمة وادفعها الى المطبعة وما يعلم أبو الحسن ماذا أقول فيها ولو اطلع عليها قبل نشرها ، لما تركني

أمدحه صادقا بما هو فيه ، لان ما في طبعه من الحياء ، يمنعه من قبول الثناء .

......

وبعد فأنا أكرر الاعتذار ، فما هذا الذي كنت أنوي أن أقوله ولكن هذه المقدمة جاءت كما قلت في أزمة شتتت فكري ، فلم أقدر على اكثر من هذا الكلام المشتت .

ولا يضر أبا الحسن ألا تكون مقدمة كتابه العظيم ، عظيمة مثله ، وما ينفعه وجودها ، ولا يضره عدمها ، ولكنه طلب فلم أملك إلا الاجابة .

ومن فاته أن يستمتع وينتفع بما كتبت هنا، فسيجد المتعة كلها والنفع كله فيما كتب المؤلف في الكتاب .

دمشق : رجب سنة ١٣٨١ **علي الطنطاوي**



بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة المؤلف

كنت في رحلتي في الشرق الاوسط أواجه سؤالا كان يتكرر ويوجه في كل مجلس وفي كل مناسبة : ما عدد المسلمين في الهند ؟ فأجيب أنهم أربعون مليونا • وهناك يندهش الناس ويندفع بعضهم قائلا : ياسلام أربعون مليونا ! فلولا ثقتهم بالضيف ولولا الجد في الجواب لسارعوا الى التكذيب أو الشك على الاقل ، لانهم ماكانوا ينتظرون بعدما سمعوا عن موجات الهجرة الكبيرة وعدد النازحين الضخم أن المسلمين سيكونون مليونا واحدا فضلا عن أربعين مليونا ، اذن فلا غرابة في استغرابهم •

لقد كانت هذه مفاجأة لاتفارقني أينما حللت ونزلت ،مفاجأة للطرفين ، مفاجأة للسائلين عن عدد المسلمين في الهند ، ومفاجأة للمجيب لاستغرابهم ، وهنالك مفاجآت أخرى فيما يتصل بالمسلمين في الهند ، فالذين كانوا يعرفون أن في الهند عددا كبيرا من المسلمين ــ على قلة هؤلاء ــ كانوا يعتقدون ان المسلمين لاشأن لهم في هذا القطر العظيم ، وليست لهم حضارة خاصة ، ولا ثقافة واسعة ، ولا آداب سامية ، ولا مؤسسات

علمية ، ولا نشاط ولا انتاج في العلم والادب ، انما هم كالرعاع أو أمة قد أفلست في كل مقومات الحياة في كل ما تعتز به أمة من علم وأدب ، ودين واجتماع ،وأخلاق ومروءة •

بل قد كان بعض الاخوان يسأل هل في الهند مساجد ، هل فيها مدارس دينية ، هل عندكم علماء ، هل يوجد هناك من يحسن أن يقرأ القرآن ، هل هناك من يفهم العربية ؟ أسئلة تدل على أن معلومات اخواننا العرب عن المسلمين في الهند ضئيلة جدا ، وتدل كذلك على أنه قد أثير نقع كبير حول المسلمين في الهند ، وتدل كذلك على تقصير علماء الهند في القيام بمهمة التعريف بهذا القطر العظيم وبهذه الامة الاسلامية العظيمة التي مثلت دورا رائعا في تاريخ الاسلام وتاريخ العلم العام ، وأضافت ثروة ذات قيمة عظيمة الى مكتبة الاسلام العامة ، وأتحفتها بطرف غالية تتجمل بها المكتبة العربية وتزدهي بها على سعتها وغناها ، وتفردت ببعض العلوم الاسلامية التي كانت ولا تزال فيها الهند زعيمة العالم الاسلامي وحاملة لواءها عدة قرون ، كعلم الحديث والفقه وأصوله في القديم ، والسيرة النبوية وعلم الكلام ، والدعوة الى الاسلام في هذا العصر •

وأنجبت الهند رجالا شهد لهم علماء العرب بالفضل وعكفوا على كتبهم ومؤلفاتهم ينقلون ويقتبسون ويستدلون ويحتجون ، وقد أنجبت كذلك علماء يندر نظيرهم في الذكاء وخصوبة الفكر

والابتكار العلمي ، وأنجبت كذلك فضلاء لا يضارعون في كثرة المؤلفات والانتاج ، وقد أنتجت من الملوك رجالا يتفردون في حسن سياستهم وتنظيمهم للدولة ، وسن القوانين العادلة ، وفي فضائلهم الخلقية ، والعلمية والعملية ، والجمع بين الدين والدنيا .

ولا تزال الهند مأهولة بشعب مسلم قوي في دينه ، غني في علمه وبرجاله ، مخصب في عقله ، متوقد الذهن نشيط مصمم على الاقامة في وطنه الذي خدمه الف سنة ، وأغناه في العلم والحضارة ، والدين والاجتماع ، وكان من صانعيه .

ان من الجفاء ان تبقى هذه البلاد الغنية برجالها واعمالها وماضيها وحاضرها مجهولة عند اصدقائها في الخارج ، مطمورة في صفحات التاريخ ، ولكن التبعة في ذلك على أبنائها قبل أن تكون على أصدقائها ، لانهم فرّطوا في تقديم هذه البلاد ، وما تمتاز به من فضل وعلم وحياة ونشاط الى الناطقين بلغة الضاد ، وانطووا على نفوسهم وعاشوا في العزلة عن العالم .

ولكنني اذا ذكرت أبناء الهند بالتقصير في جنب بلادهم الام ، فاني أعتذر الى روح مؤرّخ الهند الكبير الذي خلف لابناء البلاد العربية مكتبة كاملة في تاريخ الهند ووصفها ، وقام وحده بما تقوم به المجاميع العلمية في أوربا ، برجالها وعُدتها ، ألاوهو المرحوم العلامة السيد عبد الحي الحسني مدير ندوة

العلماء الاسبق (م ١٣٤١ هـ) الذي ألف في تراجم أعيان الهند كتابه « نزهة الخواطر » في ثمانية مجلدات كبار تشتمل على نحو خمسة الاف ترجمة [١] . وفي تاريخ الهند العلمي والتعليمي « عوارف المعارف » الذي أصدره المجمع العلمي العربي بدمشق باسم « الثقافة الاسلامية في الهند » وفي خطط الهند وآثارها كتابه « جنّة المشرق » فانه قد قضى ما عليه وزاد ، جزاه الله عن المسلمين في الهند خير ما يجزي العاملين المخلصين .

أراني قد قسوت بعض الشيء مع اخواني الكرام في الاقطار العربية العزيزة الذين لم تمكنهم شؤونهم الخاصة من دراسة تاريخ الهند وخاصة المسلمين وغابرهم ، فاني — والحق يقال — وجدت فيهم عددا لا يستهان به من المتتبعين لاحوال الهند والمطلعين على آثارها الاسلامية [٢] الذين لا يزالون يشيدون بفضلها في بعض العلوم الاسلامية ، وحراستها لامانة الحديث الشريف بعدما ركدت ريحه في البلاد العربية ، وقد رأيت حرصا كبيرا في كل بلد عربي على معرفة الهند ، وتطلعا الى اخوانهم

---

(١) ظهر من هذا الكتاب الجليل سبعة أجزاء اصدرتها دائرة المعارف في حيدر آباد ، الهند .

(٢) صدر حديثا كتاب « الاسلام في الهند » لصاحب الفضيلة الاستاذ عبد المنعم النمر ، وهو أو كتاب يصدر في الشرق العربي مؤسسا على دراسة ومعرفة واخلاص ، وليسد عوزا كبيرا في المكتبة العربية .

المسلمين في الهند ، وعناية خاصة بشؤونهم وانجذابا اليهم بحكم الدين والثقافة الاسلامية ، وبسبب ما عرف به المسلمون في الهند قديما وحديثا من الغيرة على الاسلام ، والتعصب للعلوم الاسلامية العربية ، والحرص على الجامعة الاسلامية .

ذلك يدفعني الى أن أقدم الى اخواني في الشرق العربي هذا الكتاب ، يتحدث عن الهند وعن اخوانهم فيها قديما وحديثا ، ويتناول هذا الحديث نواحي شتى في الحياة العلمية والاجتماعية والدينية ، وعما أضافه المسلمون الى ثروة الهند منذ دخولها وما أدخلوا عليها من اصلاحات وتجديدات في مختلف نواحي الحياة ، وعما أنتجه المسلمون في الهند في العلوم الاسلامية ومازادوا الى تراثها ، ومن نبغ فيها من العلماء الكبار والمؤلفين العظام ، وعن مظاهر نشاط المسلمين العلمي والديني ، ومراكزه الكبيرة في العصر الحاضر ، وعن خصائص هذا الشعب وطبيعته وشخصيته وعن ماضيه وحاضره ، وعن قضاياه الرئيسية ومشكلاته ، عسى أن يكون حلقة — ظلت مفقودة زمنا طويلا — في سلسلة تنوير الرأي العام والتزويد بالمعلومات الصحيحة وفي سبيل التعارف الاسلامي .

ويحملني الى تقديم هذا الكتاب أيضا اننا نلاحظ أن كثيرا من أقطاب السياسة والثقافة ورجالات العالم الاسلامي والشرق العربي يزورون هذه البلاد كل عام ويقضون فيها ماشاء الله من

الوقت ، ولا يهمهم أن يتصلوا باخوانهم المسلمين ـ الذين أسهموا في بناء الحضارة والثقافة الاسلاميتين العربيتين بسخاء وجدارة ـ وأن يعرفوا أوضاعهم السياسية والثقافية والدينية وما يمثلونه أو يستطيعون أن يمثلوه من دور في حضارة هذه البلاد وحضارة العالم ، وما لهم من قضايا ومشكلات يعالجونها كأنها بلاد ـ كأوربا واليابان ـ ليس فيها شعب مسلم، وينصرفون الى بلادهم لا يعرفون عن الشعب الاسلامي في الهند الا معلومات ضئيلة سطحية مبعثرة ، وقد يعرفون عن البوذئين والجنيين أكثر مما يعرفونه عن المسلمين الذين يشاركونهم في العقيدة والثقافة والحضارة ، والذين كانوا بناة الهند الجديدة وصانعيها والذين هم من أغنى شعوب العالم علما وانتاجا وحكما وادارة وآثارا ومخلفات ، ولا يزالون مصدر قوة وأمل •

الى هوءلاء وأولئك جميعا أقدم هذا الكتاب ، وبالله التوفيق •

المجمع الاسلامي العلمي **ابو الحسن علي الحسني الندوي**

ندوة العلماء ، لكهنؤ الهند **سلخ ذي الحجة الحرام ١٣٧٩ هـ**

★★★

دور المسلمين في حضارة الهند

سأتحدث في هذا المقال عمّا حمله المسلمون الى هذه البلاد مع دخولهم كدعاة مرشدين ، أو غزاة مجاهدين ، أو ملـــوك فاتحين أو علماء محققين ، من خيرات وحسنات وتحف وطرف ، وعن بعض ما أضافوه الى ثروتها الدينية والعلمية والخلقيـة والاجتماعية والصناعية والمدنية في عهدهم الطويل الجميـل الزاهـر .

دخل المسلمون في هذه البلاد حينا بدافع ديني مجرد من كل مصلحة ومنفعة ليحملوا الى أهلها رسالة الاسلام الرحيمة العادلة ، وليخرجوا الناس من ضيق الدنيا الى سعتها ، وليضعوا عنهـم أصرهم والاغـلال التي كانت عليهم كما فعـل أولئك الدعاة المخلصون الذين ارتمى في أحضانهم مئات ألوف مـن الاشقياء والمعذبين ، وأحبّوهم أكثر من آبائهم وأولادهم كالسيد علي الهجويري ، والشيخ معين الدين الاجميري ، والسيد علي بـن الشهاب الهمداني الكشميري .

ودخلوها حينا آخر كغزاة فاتحين وملوك طامحين ، كالسلطان محمود الغزنوي ، وشهاب الدين محمد الغوري ، وظهير الدين بابر التيموري مثلا ، كانوا مؤسسي دولة عظيمة ازدهرت مدة طويلة ، وخدمت البلاد ، وتقدمت بها في نواحي الحياة المختلفة .

وكان كلٌّ من هؤلاء وأولئك مصمما على الاقامة في البلاد ، أو على الاتصال بها اتصالا مباشرا مستمرا ، يعتقد أن الارض لله يورثها من يشاء ، وأن كل ماكان لله من أرض وبلاد فهو للمسلم عن طريق الخلافة والوصاية العالمية التي كلّف بها المسلمون ، فكانوا ينظرون الى هذه البلاد كوطن ، ومدفن ، ومسكن ، لايبغون عنها حولا ، فكانوا يخدمونها بكل ما أوتوه من ذكاء ونبوغ وقوى ومواهب ، وكانوا يعتقدون أن كل ما يضيفونه الى ثروتها انما يضيفونه الى ثروتهم ويحسنون الى أنفسهم وأجيالهم القادمة ، لانهم أهل البلاد وأمة المستقبل ، فكان نظرهم الى البلاد يختلف بطبيعة الحال عن نظر الاوربيين المستعمرين الذين يجلبون خيراتها الى بلادهم الخاصة ويحلبون البلاد كبقرة مستعارة لاتقيم عندهم ولا يجدون من بعد اليها سبيلا ، وذلك سر عناية المسلمين بهذه البلاد وحرصهم على تقدمها ورفاهيتها .

دخل المسلمون الهند وهي تعتزّ بحضارة أصيلة عريقة في القِدَم ، وفلسفة عميقة ، وعلوم رياضية دقيقة ، وخيرات عظيمة من حبوب وثمار وفواكه ، ومواد خامة ، ولكنها كانت — على كل ذلك — تعيش منذ قرون في عزلة عن العالم قد فصلتها عن بقية الانسانية الجبال في جانب والبحار في جانب آخر ، وكان آخر من دخلها من العالم المتمدن هو الإسكندر الكبير .

وهكذا انطوت هذه الامة العظيمة على نفسها وعاشت قرونا طويلة في عالم محدود محصور ، لاتستورد شيئا من الافكار والديانات والنظم والصنائع والعلوم من الخارج ولا تصدر اليه شيئا .

دخل المسلمون الهند وهم أرقى أمة في الشرق ، بل في العالم المتمدن المعمور في ذلك العهد ، يحملون دينا جديدا سائغا معقولا ، سهلا ، سمحا ، وعلوما اختمرت وتوسعت ، وحضارة تهذبت ، ورقت حواشيها ، يحملون معهم محصول عقول كبيرة كثيرة وتتاج حضارات متنوعة متعددة ، يجمعون بين سلامة ذوق العرب ، ولطافة حس الفرس ، وبساطة الترك ، وكانوا يحملون للهند وأهلها غرائب كثيرة وطرفا غالية .

وكان أغرب ماكانوا يحملون في الدين توحيد الاسلام النقي الذي لايرى الوساطة بين العبد وربه في العبادة والدعاء ، ولا يعترف بالآلهة والمظاهر والظلال وحلول الله ــ جل وعلا ــ في بعض البشر وظهوره فيهم ، ويؤمن بالإله الواحد الفرد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفوا أحد ، له الخلق والامر ، وله الكبرياء في السموات والارض .

يقول الباحث الهندي المعروف (K. M. Pani kkar.) وهو يتحدث عن تأثير عقيدة التوحيد الاسلامية في عقلية الشعب الهندي ، ودياناته : « من الواضح المقرر أن تأثير الاسلام في

الديانة الهندوكية كان عميقا في هــذا العهد (الاسلامي) ان فكرة عبادة الله في الهنادك ، مدينة للاســلام ، ان قادة الفكر والدين في هذا العصر وان سمّــوا آلهتهم بأسماء شتى قد دعوا إلى عبادة الله ، وصرحوا بأن الاله واحد ، وهو يستحق العبادة ، ومنه تطلب النجاة والسعادة ، وقد ظهر هذا التأثير في الديانات والدعوات التي ظهرت في الهند في العهد الاسلامي كديانــة ، Bhagti ودعوة (كبير)[1][2] »

أما في الاجتماع فكان أعجب ما حمله المسلمون معهــم هي المساواة الانسانية التي لم يكن للهند عهد بها ، فلا نظام طبقات ، ولا منبوذ ، ولا نجس بالولادة ولا جاهل يحرم عليه التعلم ، ولا تقسيم أيدي للحرف والصناعات ، يعيشون معا ويأكلون جميعا ويتعلمون سواءا ، ويختارون ما يشاؤن من الحرف والصناعات ، وقد كانت صدمة عنيفة للذهن الهندي ، والمجتمع الهنــــدي ، ولكن لاشك أنها أفادت الهند كثيرا ولطفتمــن شدة النظــام الطبقي السائد ، وكان باعثا قويا على رد الفعل ضد النظام الطبقي وحافزا للدعاة الى الاصلاح الاجتماعي ولنسخ اللمس المنبوذ .

وقد قرر هذه الحقيقة التاريخية جواهر لال نهرو رئيس وزراء الهند اذ قال : « ان دخول الغزاة الذين جاؤا من شمال غرب

---

(١) شاعر متصوف ينتقد المجتمع الهندي ويدعو الى الاصلاح اختلف الناس في ديانته .

(٢) Asurney of Indian History .P . 132

الهند ودخول الاسلام له أهمية كبيرة في تاريخ الهند ، انه قد فضح الفساد الذي كان قد انتشر في المجتمع الهندوكي ، انه قد أظهر انقسام الطبقات واللمس المنبوذ وحب الاعتزال عن العالم الذي كانت تعيش فيه الهند ، ان نظرية الاخوة الاسلامية والمساواة التي كان المسلمون يؤمنون بها ويعيشون فيها أثرت في أذهان الهندوس تأثيرا عميقا وكان أكثر خضوعا لهذا التأثير البؤساء الذين حرّم عليهم المجتمع الهندي المساواة والتمتع بالحقوق الانسانية »(١) .

وكانت الهدية الثالثة احترام المرأة والاعتراف بحقوقها وكرامتها كعضو محترم من أعضاء الاسرة الانسانية وشقيقة الرجل ، وعظمة هذه الهدية في بلاد كانت السيدات يحرقن أنفسهن بالنار على وفاة أزواجهن ولا يرين ولا يرى المجتمع لهنّ حقا في الحياة بعد الازواج ، أقول ان عظمة هذه الهدية في مثل هذه البلاد واضحة لاتحتاج الى تعليق .

نقل المسلمون الى الهند علوما جديدة كذلك ، من أجلّها وأنفعها — اذا تركنا العلوم الاسلامية التي لاتتوقع من الهند — علم التاريخ فقد كانت البلاد فقيرة في التاريخ ليس في مكتبتها كتاب تاريخ بالمعنى الصحيح ، انما هنالك صحف دينية أو ملاحم مقصورة على حرب أو عهد ، مثل « مهابهارت »أو « رامائن »

---

(١) ٣٣٥ ، ٥٢٦ (Discovery of India)

أما المسلمون فقد كوّنوا في التاريخ مكتبة هائلة من أوسع المكتبات التاريخية في العالم ، ولنظرة في كتاب « الثقافة الاسلامية في الهند »[1] للعلامة السيد عبد الحي الحسني تخبر بما كان بهم من نشاط غريب وانتاج ضخم في تاريخ الهند وفي التاريخ العام .

قال غوستاف لوبون في « حضارة الهند » :

« ليس للهند القديمة تاريخ ، وليس في كتبها وثائق عن ماضيها »

« فالحق أن دور الهند التاريخي لم يبدأ الا بعد المغازي الاسلامية في القرن الحادي عشر بفضل مؤرخي المسلمين » .

وقد اكتسبت الهند من المسلمين بصفة عامة توسعا في الخيال وجدّة في التفكير ، ومعاني جديدة في الادب والشعر لم تكن تخطر على بال لولا عملية التوليد العقلي والتلقيح الفكري والادبي ، وكان مما منح المسلمون الهند هذه اللغة الجميلة الواسعة التي أصبحت لغة التفاهم ولغة العلم في الهند التي عرفت بكثرة اللغات واللهجات أعني لغة أردو .

وكان تأثير المسلمين في المدنية والصناعة وأساليب الحياة أبرز وأقوى منه في نواح أخرى ، فقد أدخلوا في هذه البلاد حياة جديدة تختلف عن الحياة القديمة في هذا القطر ، كما تختلف

---

(١) صدر هذا الكتاب حديثا عن المجمع العلمي العربي بدمشق .

الحياة في أوربا اليوم عن الحياة في القرون الوسطى .

واذا أردنا أن نعرف ما أضافه المسلمون الى ثروة هذه البلاد ومدنيتها يجب علينا أن نستعرض الهند وثروتها ومدنيتها وحاصلاتها ومرافقها ومستوى المعيشة فيها قبل أن يتمكن المسلمون من بناء مدنية جديدة واقامة حضارة هندية اسلامية واتحاف هذه البلاد بما عرفوه وألفوه من مرافق الحياة ورقائق المدنية ، وقد ترك لنا مؤسس الدولة المغولية العظمى ظهير الدين محمد بابر (٨٨٨ ـ ٩٣٩) صورة واضحة عن مدنية الهند وثروتها الطبيعية والصناعية والمستوى الذي كانت عليه هذه البلاد عند غزوه لها ، ولا يخفى أن اليد الاسلامية الصناع الحاذقة ظلت تشتغل مدة قبل الهجوم المغولي ، يقول بابر في مذكراته [١] :

« لا وجود للخيل العتاق ، ولا يوجد من الفواكه العنب والبطيخ والاثمار الطيبة ، الثلج مفقود ، والماء البارد قليل نادر ، والحمام لا يوجد ، والمدارس لا يعرفها أهل الهند ، والمشكاوات والشموع لا وجود لها ، وكذلك الفوانيس ، ويستعملون مكانها خشبة ذات ثلاثة أرجل تحمل احدى أرجلها حديدة مركبة بها ، وفي الرجل الثانية فتيلة ضعيفة وفي يدها اليمنى قرع (دبّاء) له ثقب صغير ينزل منه الزيت على الفتيلة وبهذه المشكاة الوسخة

---

(١) كتبها بابر في اللغة التركية في أسلوب أدبي رفيع ونقلها الى الفارسية الاديب التركي والشاعر الكبير قائد قواد الدولة المغولية الامير عبد الرحيم بيرم خان ، وطبعت في بمبىء (الهند) .

يستعين الملوك والامراء عند الحاجة في الليل .

أما الحدائق والابنية فلا توجد فيها عيون متدفقة ومياه جارية ولا تتمتع هذه الابنية بالنظافة والهواء والتناسب ، وأكثر أفراد الشعب يمشون حفاة ويكتسون بخرقة والنساء يتزرن بالازار يلقين طرفا منه على الرأس »[1]

ومعلقا على ما سجله المؤسس الكبير لاعظم حكومة في الهند من ملاحظات وانطباعات عن هذه البلاد ، يقول جواهر لال نهرو رئيس وزراء الهند في كتابه (Discovery of India) :

« ومن خلال التاريخ الذي ألّفه بابر نرى فقر الحضارة الذي كان مسيطرا على الهند الشمالية ، ومرجع ذلك ، التدهور الذي كان نتيجة هجوم تيمور ، وبسبب أن كثيرا من العلماء والفنانين والصناع نزحوا من شمال الهند الى جنوبها ، ومن أسباب هذا الانحطاط أن منابع الابداع والابتكار في أهل الهند قد نضبت ، يقول بابر : ان البلاد ليست فقيرة في وجود الصناع الحاذقين ولكن اختراعات أهل الهند تخلو من الذكاء والفطانة » ...... ان سقوط الحضارة الهندية في شمال الهند واضح لا خفاء فيه ان العقائد المرسومة والمجتمع المتزمّت قد منعا الاصلاح الاجتماعي والتقدم »[2]

كانت البلاد ــ رغم خصبها وغناها ــ قليلة الفواكه والثمار

---

(١) « توزك بابري » مذكرات ظهير الدين بابر ، الترجمة الفارسية .

(٢) الجزء الاول ٥١ . (Discovery of India)

وأكثرها برّية لم تلق العناية اللازمة حتى جاء المغول وهم أصحاب ذوق رفيع وأبناء بلاد كثيرة الفواكه والاثمار ، فأدخلوا عليها ثمارا جديدة وفواكه كثيرة يعرفها المستقصي من كتاب « توزك بابري » و « توزك جهانكيري » وقاموا بعملية التلقيح والتهذيب لبعض الثمار الهندية حتى جاء أشهى وألذ وألطف كما كان الشأن مع « المانجو » أشهر فواكه الهند وألذها وأفضلها فلم يكن يوجد منه الا ما ينبت بالبذر فلقحوه حتى جاء ما يسمونه في الهند « قلمى » وكان منه أنواع في العهد الاخير ، لعلها تزيد على مائة نوع .

كذلك كان انتاجهم عظيما في صناعة القماش والمنسوجات وقد كان أغلب لباس أهل الهند الكرباس والقطن الثخين العادي والصوف الخام .

وقد أنشأ ملك كجرات السلطان محمود بن محمد الكجراتي المشهور باسم محمود بيكره (م ٩١٧ هـ) مصانع كثيرة للنسج والوشي والتطريز والنحت ، ومصنوعات العاج والمنسوجات الحريرية ، وصناعة الورق ، وقد كان السلطان محمود هذا ملكا عمرانيا كبيرا ، أحدث نشاطا صناعيا وزراعيا وتجاريا منقطع النظير في تاريخ ذلك العصر يقول مؤرخ الهند العلامة السيد عبد الحي الحسني في ترجمته في نزهة الخواطر :

« ومن مكارمه قيامه بتعمير البلاد وتأسيس المساجد

والمدارس والخوانق وتكثير الزراعة وغرس الاشجار المثمرة وانشاء الحدائق والبساتين وتحريض الناس على ذلك ، وإعانتهم بحفر الآبار واجراء العيون ، ولذلك أقبل عليه الناس اقبالا كليا ووفد عليه البناؤن والمعمارون وأهل الحرف والصنائع من بلاد العجم فقاموا بحرفهم وصنائعهم فصارت كجرات رياضا مخضرة بكثرة الحياض والابار والحدائق والزروع والفواكه الطيبة ، وصارت بلاد كجرات متجرة تجلب منها الثياب الرفيعة الى بلاد أخرى ، وذلك كله لميل سلطانها محمود شاه الى ما يصلح به الملك والدولة ويترفه به رعاياه »[1]

وكذلك فعل « أكبر » وأنشأ معامل كبيرة للنسج ، وقد كانت لهم اصلاحات دقيقة عظيمة التأثير في تعيين الضرائب على حسب الاراضي ومساحة العقارات والمزارع وتنظيمها وتشريعات مضبوطة وتنظيم المالية واصلاح نظام النقود ، لم يكن للحكومات الهندية السابقة عهد بها ، قد كان لشيرشاه السوري الملك المقنِّن والاداري العبقري فضل التقدم والابتكار وتبعه « أكبر » .

وكذلك كان للحكومات الاسلامية فضل في تربية الحيوانات واقتنائها وترقية نسلها وتربية أجسامها ، يظهر ذلك في مذكرات جهانكير « توزك جهانكيري » وكتب التاريخ مثل آئين اكبري» أما تأسيس المستشفيات (المارستانات) ودور العجزة، والحدائق

---

(١) نزهة الخواطر الجزء الرابع ، ترجمة السلطان محمود بن محمد الكجراتي ، ص ٣٤٥ .

العامة والمنتزهات والترع الكبيرة والبرك العظيمة فقد كان من محاسن الدول الاسلامية التي لم تسبق اليها ، وفي كتاب « جنة المشرق » وهي « خطط الهند »[1] للعلامة عبد الحي الحسني قائمة طويلة بأسماء المستشفيات والمؤسسات الخيرية والمشاريع المدنية التي نشأت في عصور الدول الاسلامية المختلفة.

وكذلك الشوارع الطويلة التي تجمع بين شرق الهند وغربها وتمتد على طول الهند وعرضها كانت من انشاء الملوك المسلمين ، اشتهر منها الشارع الطويل الذي أنشأه شيرشاه السوري من سناركاؤن أقصى بلاد بنغال (في باكستان الشرقية) الى ماء نيلاب من أرض السند (في باكستان الغربية) مساحته اثنتان وثلاثون وثمان مائة وأربعة الاف كيلو (٤٨٣٢ كم) وأسس في كل ثلاثة كيلوات رباطا ورتب هناك مائدتين مائدة للمسلمين ومائدة للهنادك ، وأسس مسجدا على كل ثلاثة كيلوات ، ووظف مؤذنا ومقريا واماما في كل مسجد ، وعين في كل رباط فرسين للبريد فكان يرفع اليه أخبار نيلاب الى أقصى بلاد بنغال كل يوم ، وغرس الاشجار المثمرة بجانبي الشارع ليستظل بها المسافر ويأكل منها.

وعلاوة على ذلك فقد كان مما أدخله المسلمون وتقلوه من الخارج الى الهند النظافة الزائدة والاناقة في كل شيء والظرافة

---

(١) لم يطبع هذا الكتاب بعد.

في المأكل والمشرب والبناء والاجتماع ، والاحتفاظ بأصول الصحة وتهوية البيوت وتنويرها والتأنق في الاواني ، فقد كان أهل الهند ـ ولا يزال كثير منهم ـ يأكلون على أوراق الشجر خصوصا في الولائم الكبيرة ، وقد أحدث المسلمون انقلابا عظيما في المجتمع وفي الحياة المنزلية وفي نظام تأثيث البيوت .

وكذلك أدخلوا فنا معماريا جديدا يمتاز بالمتانة والدقة والرقة والجمال والتناسب والفخامة والتهوية والتنوير ، ولايزال « تاج محل » آية في الهندسة والبناء ، وذكرى عهد المسلمين الزاهر ، ودليلا ناطقا على ما بلغوا اليه من رقة الذوق ولطافة الحس والابداع في الفن .

وقد اعترف جواهر لال نهرو في كتابه « العثور على الهند » (Discovery of India) بتأثير المسلمين الواسع العميق في العقلية الهندية وفي المجتمع الهندي ، وتأثيرهم في حضارة هذه البلاد يقول :

« ان دخول الاسلام والشعوب المختلفة في الهند التي حملت معها أفكارا طريفة وأساليب مختلفة للحياة قد أثرت في عقيدتها وأثرت في هيأتها الاجتماعية ، ان الفتح الاجنبي ـ على علاته وما فيه من مساوىء ـ لايخلو من فائدة ، وهي أنه يوسع أفق الشعب المفتوح الفكري ، ويضطره الى الخروج من الحصار الفكري الذي أقامه حوله ، وبذلك يبدأ أفراده يفهمون أن الدنيا

أوسع وأكثر اختلافا وتنوعا مما كانو يتصورون ويعتقدون ، وهكذا أثر الفتح الافغاني في الهند وظهرت تطورات كثيرة في حياتها ، وكانت هذه التطورات أكثر وأعمق بعد دخول المغول في الهند لانهم كانوا أكثر ثقافة وأرقى من الافغان ، وقد نشروا في الهند الاناقة التي كانت من خصائص ايران (١) .

وقد اعترف بذلك أحد قادة حركة التحرير في الهند ورئيس المؤتمر الوطني سابقا Pattabhai Sila Ramyya في خطبته التي ألقاها في حفلة المؤتمر الوطني الهندي في « جي يور » قال :

« ان المسلمين أغنوا ثقافتنا ، انهم قووا ادارتنا ، وقرّبوا أجزاء البلاد البعيدة بعضها الى بعض ، لقد كان تأثيرهم عميقا في آداب البلاد وحياتها الاجتماعية » (٢)

ويقول الدكتور هنتر الذي يعتبر من كبار الحاقدين على الشعب الاسلامي الهندي وعواطفه الاسلامية :

ان المسلمين قد أنشأوا مستعمرات في جنوب الهند الاراضي التي أحيوها وعمروها ، واذا قيّض لسائح أن يتجول في هذه المنطقة استرعى انتباهه البرك التي يسقى بها الزرع ، والمساجد والرباطات والاحواض والزوايا التي أنشأوها في غابات موحشة لم يكن بها عمران .

---

(١) الجزء الاول ص ٥١١ (Discovery of India)

(٢) خطبة المؤتمر الهندي الوطني .

وقد ظل المسلمون ينشرون دينهم نادرا بالسيف وغالبا بتأثير عاطفتين قويتين أن الهنادك لم يسمحوا للشعوب القديمة التي كانت تسكن عند منبع الكنج بالدخول في مجتمعهم ، أما المسلمون فقد قدموا جميع الحقوق الانسانية لطبقة البراهمة والمنبوذين سواءا بسواء ، ان هؤلاء الدعاة المتحمسين أعلنوا في كل مكان أن كل واحد يجب عليه أن يخضع لله الواحد العلي ، وأن البشر كلهم سواء عنده لا فضل لأحد على آخر إلا بالتقوى ، وأن الله قد خلقهم كذرات التراب [1]

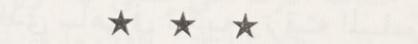
وقد ذكر مؤرخ الهند الكبير المشهور بمؤلفاته السائرة وكتبه المقررة في الجامعات « جادوناتهه سركار » في مقالته بالانجليزية التي ظهرت في مجلة كلكتة « الهند الواعية » بعنوان « الاسلام في الهند » عشرا من هبات الاسلام للشعب الهندي ، منها ما تقدم في مقالنا والذي زاده هذا المؤرخ الكبير ونذكره هنا : الاولى : صلة الهند بالعالم الخارجي ، والثانية : وجود الوحدة السياسية والوحدة في اللباس والحضارة خصوصا في الطبقات الراقية ، والثالثة : وجود لغة رسمية ادارية واسلوب من النثر الفني الذي ساهم في تهذيبه وترقيته المسلمون والهنادك ، والرابعة : تقدم لغات اقليمية في ظل الحكومة المركزية لوجود السلام والرفاهية في البلاد ، وازدهار آدابها وانتشارها ،

(١) مسلمو الهند . W. W. Hunter our Indian Musalmans

والخامسة : تجديد التجارة عن طريق البحار التي كانت قدتوقفت وفقدت منذ مدة طويلة ، والتي كان يقوم بها أهل الجنوب في الزمن القديم ، والسادسة : انشاء بحرية للهند .

ونختم هذه المقالة الوجيزة بكلمة لكاتب عصري فاضل وهو N. C. Mehta . I. C. S. يقول في كتابه : (Indian Civilisation and Islam) « الحضارة الهندية والاسلام » :

ان الاسلام قد حمل الى الهند مشعلا من نور قد انجلت به الظلمات التي كانت تغشى الحياة الانسانية في عصر مالت فيه المدنيات القديمة الى الانحطاط والتدلي ، وأصبحت الغايات الفاضلة معتقدات فكرية ، لقد كانت فتوح الاسلام في عالم الافكار أوسع وأعظم منها في حقل السياسة ، شأنه في الاقطار الاخرى ، لقد كان من سوء الحظ أن ظلّ تاريخ الاسلام في هذا القطر مرتبطا بالحكومة فبقيت حقيقة الاسلام في حجاب ، وبقيت هباته وأياديه الجميلة مختفية عن الانظار .



تراث العلماء المسلمين العلمي في الهند

وعنايتهم باللغة العربية

كان المسلمون في الهند أوفياء لوطنهم لا يتشاغلون عن خدمته والتقدم به في ميادين العلم والصناعة والمدنية ، أوفياء لدينهم وثقافتهم الاسلامية العربية لا يتخلفون عن ركبها ولا ينقطعون عنها وقد نراهم في بعض فترات التاريخ في مقدمة القافلة ومأخذ الزمام .

ان الجمع بين ثقافتين تتناقضان كثيرا وتلتقيان قليلا ، وأن الوفاء لوطنين – مادي وروحي – مهمة عسيرة لا نعرف شعبا من شعوب الاسلام كلف نفسه بها ثم نجح نجاح مسلمي الهند .

ان مؤلفات المسلمين في الهند في العلوم الاسلامية لا تحصى كثرة وذلك موضوع كتاب كبير ، ككتاب الفهرست لابن النديم، أو كشف الظنون للجلبي وجولة في كتاب « الثقافة الاسلامية في الهند » للعلامة السيد عبد الحي الحسني تدل على مركز الهند العلمي وقسط علمائها ومؤلفيها في حركة التأليف والنشر ، وأقتصر هنا على الكتب التي تخطت شهرتها حدود الهند وسارت بها الركبان واحتفى بها علماء العرب ، وأخص منها أولا ما ألف باللغة العربية .

من هذه الكتب العالمية ، كتاب « العباب الزاخر » للامام حسن بن محمد الصغاني اللاهوري من رجال القرن السابع الهجري الذي عد من مراجع اللغة العربية ، وغرر كتبها ، وقد اعتنى به أئمة اللغة قديما وحديثا ، واعترفوا له بالدقة ، والاتقان وغزارة المادة ، واعترفوا لصاحبه بالفضل والامامة فيهذا الشأن ، قال السيوطي : انه كان حامل لواء اللغة وقال الذهبي : ان اليه المنتهى في اللغة ، وقال الدمياطي : انه كان إماما في اللغة والفقه والحديث ، وكذلك كتابه « مشارق الانوار » في الحديث من الكتب المشهورة المقبولة في العالم الاسلامي ، وقد ظل مدة طويلة من كتب التدريس .

ومنها كتاب « كنز العمال » للشيخ علي بن حسام الدين المتقي البرهانيوري من رجال القرن العاشر ، وهو ترتيب جمع الجوامع للسيوطي وهو من الكتب التي انتفع به علماء الحديث كثيرا ، واعترفوا لصاحبه بمجهود عظيم وفر عليهم وقتا كبيرا وأغناهم عن مراجعات كثيرة ، قال الشيخ أبو الحسن البكري ، الشافعي من أئمة العلم في الحجاز في القرن العاشر : إن للسيوطي منة على العالمين وللمتقي منة عليه .

ومنها كتاب « مجمع بحار الانوار في غرائب التنزيل ولطائف الاخبار » للشيخ محمد طاهر الفتني (م ٩٨٦ هـ) قال العلامة السيد عبد الحي في « نزهة الخواطر » جمع فيه المؤلف كل غريب

الحديث وما ألف فيه فجاء كالشرح للصحاح الستة وهو كتاب متفق على قبوله بين أهل العلم منذ ظهر في الوجود وله منة عظيمة بذلك العمل على أهل العلم ، وكذلك كتابه « تذكرة الموضوعات » من الكتب السائرة المتداولة في الموضوع .

ومنها الفتاوى الهندية التي تعتبر من المراجع الفقهية الكبرى التي عليها العمدة في كثير من الاقطار الاسلامية التي تحكم بالفقه الحنفي يقول صاحب « الثقافة الاسلامية في الهند » :

« أما الفتاوى العالمكرية ويسمونها الفتاوى الهندية فهي من أجلّها وأنفعها (أجل الفتاوى والمجاميع) في كثرة المسائل وسهولة العبارة ، وحل العقد ، وهي التي اشتهرت في بلاد العرب والشام ومصر القاهرة بالفتاوى الهندية ، وهي في ستة مجلدات كبار رتبوها على ترتيب الهداية ، واقتصروا فيها على ظاهر الرواية ، ولم يلتفتوا الى النوادر إلا إذا لم يجدوا جواب المسألة في ظاهر الرواية ، أو وجدوا جواب النوادر موسوما بعلامة الفتوى ، ونقلوا كل عبارة معزوة الى كتابها ولم يغيروا إلا لداعي ضرورة ، وقد ولّى السلطان اورنك زيب عالمكير التيموري أنار الله برهانه الشيخ نظام الدين البرهانيوري ، في أوائل سلطنته تدوينها باستخدام الفقهاء الحنفية وبذل على تدوينها مائتي الف روبية »[1] .

وقد ذكر المؤلف أربعة وعشرين رجلا من كبار علماء الهند في

(١) مائتا الف روبية هندية تساوي نحو خمسة عشر الفا ١٥٠٠٠ من الجنيهات وقيمتها في هذا العصر أكثر من مائة الف جنيه .

ذلك العصر ساهموا في تدوينها ، وكان أربعة منهم وهم القاضي محمد حسين الجونيوري المحتسب ، والشيخ علي أكبر الحسيني أسد الله خاني ، والشيخ حامد بن أبي الحامد الجونيوري والمفتي محمد أكرم الحنفي اللاهوري قد تولوا أرباعها لكل واحد منهم الاشراف على ربع الكتاب .

ومنها كتاب « مسلَّم الثبوت » في أصول الفقه للعلامة محب الله ابن عبد الشكور الحنفي البهاري المتوفى (١١١٩ هـ) وقد رزق القبول العظيم في الاوساط العلمية المدرسية في الهند وبلاد الاسلام ، وتناوله كبار العلماء في عصورهم بالتدريس والشرح ، وكانت له عشرة شروح لكبار الاساتذة الفضلاء في الهند .

ومنها كتاب « كشاف اصطلاحات الفنون » للشيخ محمد أعلى التهانوي من رجال القرن الثاني عشر ، كتاب عظيم النفع ، تلقّاه المشتغلون بالعلم في بلاد العرب بالقبول ، وأثنوا عليه لأنه كمعجم للمصطلحات العلمية يغني عن مراجعة آلاف من الصفحات ومئات من الكتب ، وهذا موضوع لم يكن فيه كتاب كبير على شدة الحاجة اليه ، ولا يزال المرجع الوحيد للفضلاء والمؤلفين والباحثين في هذا الشأن .

وفي هذا الموضوع كتاب آخر وهو « جامع العلوم » المشهور بدستور العلماء في أربعة مجلدات للشيخ عبد النبي بن عبد الرسول الاحمد نكري من رجال القرن الثاني عشر أيضا .

ومنها بل من أعظمها كتاب « حجة الله البالغة » للامام ولي الله الدهلوي (م ١١٧٦) في أسرار أحكام الشريعة وفلسفة التشريع الاسلامي وهو كتاب مبتكر في موضوعه لايوجد له نظير في المكتبة العربية على سعتها ، وقد أجلَّه علماء هذا الموضوع وأعيد طبعه في مصر مرارا .

ومما يجب الاشارة اليه أن هذا الكتاب يتَّسم بنصاعة العربية وقوة العبارة وانسجامها وبعدها عن السجع البارد وتقليد اسلوب الحريري الذي كان متفشيا في عصره ومصره ، وقلما نجا منه مؤلف وكاتب في القرون الاخيرة وهو يعدّ بحق المثال الثاني للنثر الطبعي السلسال والتعبير العلمي العامر بعد مقدمة ابن خلدون في عصور انحطاط العربية وغلبة العجمة والصناعة على الكتّاب والمؤلفين في العالم الاسلامي .

ومنها كتاب « تاج العروس في شرح القاموس » للسيد مرتضى بن محمد البلكرامي المشهور بالزبيدي (م ١٣٠٥) الذي هو أشهر من أن يعرف ، وهو مكتبة لغوية علمية عظيمة في عشرة مجلدات كبار ، وقد اشتهر أمر هذا الكتاب في حياة صاحبه فاستكتب منه الخليفة العثماني نسخة ، وسلطان دارفور نسخة ، وملك المغرب نسخة ، وطلب منه أمير اللواء محمد بيك أبو الذهب نسخة وجعلها في مكتبة مسجده الذي أنشأه بالقرب من الازهر ، وبذل في تحصيله ألف ريال .

وقد نبغ في الهند في القرن الرابع عشر الهجري مؤلفون فاقوا في العالم الاسلامي كله في سرعة التأليف وكثرة المؤلفات وضخامة الانتاج وكان كل واحد منهم مجمعا علميا نشيطا وقد قام بعضهم شخصيا بما لا تقوم به مجاميع علمية في أكثر الاحيان ، فالامير صديق حسن بن أولاد حسن القنوجي أمير بهويال (م ١٣٠٧) يبلغ عدد مؤلفاته اثنين وعشرين ومائتي كتاب (٢٢٢) منها ستة وخمسون (٥٦) كتابا في اللغة العربية وفيها كتب كبار ذات قيمة علمية منها « فتح البيان في تفسير القرآن » في عشرة مجلدات كبار وأبجد العلوم ، والتاج المكلل ، والبلغة في أصول اللغة ، والعَلَم الخفاق من علم الاشتقاق .

ويبلغ عدد مؤلفات علامة الهند فخر المتأخرين الشيخ عبد الحي بن عبد الحليم اللكهنوي (م ١٣٠٤) مائة وعشرة كتب (١١٠) منها ستة وثمانون (٨٦) كتابا بالعربية من أشهرها وأجملها « السعاية في شرح شرح الوقاية » و « مصباح الدجى » والتعليق الممجّد ، وظفر الاماني ، ولا يزال كتابه « الفوائد البهية » عمدة المؤلفين في تراجم علماء المذهب الحنفي ومرجعهم الكبير .

ويبلغ عدد مؤلفات المصلح الكبير والمربي الشهير مولانا أشرف علي التهانوي (م ١٣٦٢) تسع مائة وعشرة (٩١٠) منها الصغير ، والكبير منها ثلاثة عشر كتابا بالعربية .

وللعلامة محمود حسن خان التونكي (م ١٣٦٦ هـ — ١٩٤٧ م)

كتاب عظيم سمّاه « معجم المصنفين » هو كدائرة معارف في هذا الموضوع في نحو ستين مجلدا ، تحتوي على عشرين ألفا من الصفحات المطبوعة وعلى تراجم أربعين ألفا من المصنفين وناهيك من سعة الكتاب واستقصائه أن فيه تراجم ألفين من المؤلفين كلهم يسمون أحمد ، وقد لخّص في كتابه نحو ألف وخمس مائة من الكتب وذكر كل من ترك بالعربية كتابا منذ بدأ العهد التأليفي الى سنة (١٣٥٠ هـ) وظهرت منه أربعة أجزاء طبعت في بيروت على نفقة حكومة حيدر آباد ، والاجزاء الباقية محفوظة في المكتبة الآصفية بحيدر آباد .

ومن كبار مؤلفي هذا العصر وكتّابه العلامة الدكتور السيد سليمان الندوي (م ١٣٧٣ هـ) الذي خلّف مكتبة كبيرة ، من مؤلفاته في السيرة النبوية والشريعة الاسلامية والتاريخ والادب ومجموع ما طبع يبلغ نحو ستة آلاف صفحة غير مقالاته وشذراته التي كان يكتبها في مجلة « معارف » التي تعتبر أرقى مجلة علمية في الهند ، وأجوبته وفتاواه العلمية ، وهو يستحق ان يعد من كبار المؤلفين والمحققين الباحثين في الشرق .

ومن كبار الموءلفين أيضا الذين عرفوا بالاقتدار على التأليف وسيلان القلم وغزارة المادة وسعة المعلومات العلامة مناظر أحسن الكيلاني ، (م ١٣٧٥ هـ) صاحب « النبي الخاتم » و « تدوين الحديث » و « نظام الاسلام الاقتصادي » و « نظام التعليم والتربية » وغيرها ، وقد خلف مكتبة عامرة من مؤلفاته .

وقد عرف علماء الهند بشغفهم بالعلوم الدينية وانتهت اليهم رئاسة التدريس والتأليف في فنون الحديث وشرح متونه ومجاميعه وسلّمت زعامتهم في هذا الموضوع في العهد الاخير حتى قال العلامة السيد رشيد رضا منشىء مجلة « المنار » في مقدمة « مفتاح كنوز السنة » « لولا عناية اخواننا علماء الهند بعلوم الحديث في هذا العصر لقُضِيَ عليها بالزوال من أمصار الشرق فقد ضعفت في مصر والشام والعراق والحجاز منذ القرن العاشر للهجرة » .

ولعلماء الهند في هذا العصر مؤلفات جليلة في فنون الحديث وشروح لأمهات كتبه تلقّاها العلماء بالقبول منها « عون المعبود في شرح سنن أبي داوود » للشيخ محمد أشرف الديانوي و« بذل المجهود في شرح سنن أبي داوود » أيضا للشيخ خليل أحمد السهارنفوري ، و « تحفة الاحوذي في شرح سنن الترمذي » للشيخ عبد الرحمن المباركفوري ، و « فتح الملهم في شرح صحيح مسلم » للشيخ بشير أحمد الديوبندي ، و « أوجز المسالك الى شرح موطأ الامام مالك » للشيخ محمد زكريا الكاندهلوي ، و « فيض الباري » إفادات للعلامة أنورشاه الكشميري على صحيح البخاري لا تزال عمدة ومرجعا لطلبة هذا الفن الشريف وعلمائه .

ومن الكتب التي اعتنى بها العلماء في الاقطار الاسلامية وعدوها من خيرة ما كتب في الموضوع كتاب « إظهار الحق »

و « إزالة الاوهام » للشيخ رحمة الله الكيرانوي (م ١٣٠٩)
و « فقه اللسان » للقاضي كرامة حسين الكنتوري (م ١٣٣٥)
و « الامعان في أقسام القرآن » للعلامة حميد الدين الفراهي
(م ١٣٤٩ هـ) و « جمهرة البلاغة » ورسائل في تفسير سور من
القرآن تدل على عمق فكره ودقة نظره واطلاعه الواسع على
التوراة والانجيل وتضلعه من علوم العربية والبلاغة .

ولفضلاء الهند ومؤلفيها كتب في الفارسية في أغراض
اسلامية وعلمية تستحق أن تعتبر فريدة في موضوعها ، وبديعة
في اسلوبها أو تأثيرها ، أو في طرافة بحوثها ، أو غزارة مادتها ،
لذلك نقل عدد منها ، الى بعض اللغات الاسلامية كالعربية
والفارسية والتركية ، كرسائل الامام أحمد بن عبد الاحد السرهندي
ورسائل الامام يحيى بن شرف الدين المنيري البهاري المعروفة
بالمكتوبات في المعارف الإلهية والنكت الشرعية ، وإزالة الخفاء
عن خلافة الخلفاء » لشيخ الاسلام ولي الله بن عبد الرحيم
الدهلوي في بحث الخلافة وثبوت خلافة الخلفاء الراشدين
و « الفوز الكبير في أصول التفسير » له ، و « تحفة اثنا عشرية »
في الرد على الشيعة الامامية ، لولده العلامة عبد العزيز الدهلوي ،
و « الصراط المستقيم » في فن التزكية والتصوف ، للسيد الامام
أحمد بن عرفان الشهيد ...... و « منصب الامامة » للشيخ
اسماعيل بن عبد الغني ، وكلها بالفارسية .

ولهم تأليفات في العهد الاخير في أردو اعتبرت من أفضل ما

ألف في موضوعها ، وأكثرها في السيرة النبوية كسيرة النبي في ستة مجلدات كبار ، للعلامة شبلي النعماني وتلميذه الاستاذ الكبير السيد سليمان الندوي وهي كدائرة معارف في السيرة وعلم الكلام والتوحيد ، وسيرة رحمة للعالمين للقاضي سليمان المنصور فوري ، في ثلاثة مجلدات من أعظم كتب السيرة تأثيرا و « النبي الخاتم » للشيخ مناظر أحسن الكيلاني من أكثرها استنباطات ونكتا لطيفة و « الفاروق » للعلامة شبلي النعماني في سير أمير المؤمنين عمر و« شعر العجم » له في تاريخ الشعر الفارسي ونقده ، ومؤلفات العالم السرباني مولانا محمد قاسم التانوتوي في علم الكلام وفضل الاسلام ، وإثبات بعض عقائده وأحكامه •

ولم يزل شعار المسلمين في الهند منذ العهد الاول الاعتناء الكامل باللغة العربية ، والتعصب لها ، وقد حافظوا عليها كلغة التأليف والعلم، وكان فيها شعراء مفلقون كالقاضي عبدالمقتدر الكندي الدهلوي (م ٧٩١ هـ) والشيخ أحمد بن محمد التهانيسري (م ٨٣٠ هـ) والشيخ غلام علي آزاد البلكرامي ، صاحب «السبع السيارة » (م ١٣٠٠ هـ)والمفتي صدر الدين الدهلوي(م١٢٨٥هـ) والشيخ فيض الحسن السهارينوري (م ١٣٠٤ هـ) والشيخ ذو الفقار علي الديونيدي ، (م ١٣٢٢ هـ) وأدباء محققون كالاستاذ عبد العزيز الميمني ، والشيخ أبي عبد الله محمد السورتي •

ولا يزال المسلمون متمسكين باللغة العربية يدرسون

أمهات كتبها في مدارسهم التي يسمونها « المدارس العربية »
ويوءلفون ويكتبون فيها ، وقد أصدروا في فترات مجـلات
وصحفا عربية تدل على عنايتهم بهذه اللغة ونشرها وإحيائهـا
منها مجلة « البيان » الشهرية التي كانت تصدر من لكهنؤ ،ومنها
صحيفة « الجامعة » الاسبوعية التي كانت تصدر من كلكتـا
وكان رئيس تحريرها مولانا أبو الكـلام آزاد رئيس المؤتمر
الوطني بعد ، ووزير المعارف في الحكومة الهندية بعـد ذلك ،
ومنها مجلة « الضياء » الشهرية التي كانت تصدر من نـدوة
العلماء لكهنؤ ونالت اعجابا وتقديرا في الاوساط العلمية والادبية
في البلاد العربية منشئها المرحوم الاستاذ مسعود عالم الندوي •
ولا تزال مجلة « البعث الاسلامي » لسان حال الدعوة الاسلامية
ورائد الفكرة الاسلامية تصدر من ندوة العلماء ، وصحيفـة
« الرائـد » الندوية الاسبوعية تنشئها طلبة دار العلوم ويكتبون
فيها •

وقد خرَّجت دار العلوم التابعة لندوة العلماء طائفةمن الكتاب
البارعين في اللغة العربية وأوجدت نشاطا أدبيا ملحوظا في الهند ،
ومحصولا ذا قيمة أدبية لاتجمل لمؤرخ الادب العربي أن يفعلـه
اذا اراد أن يستوعب الحركة الادبية في الاقطار الاسلامية،ويذكر
مدارسها المختلفة •



نوابغ الشعب الهندي الاسلامي

انما يدلُّ على نجابة أمة وصلاحيتها للبقاء نبوغ عبقريين فيها في مختلف شعب الحياة وميادينها وأصناف العلم ، والشعب الاسلامي في الهند غني في نوابغ الرجال ، والعبقريين في ضروب الكمـال .

قد قامت في الهند دولة علمية اسلامية قوية منذ القرن السادس اجتمع في ظلها نوابغ كل فنّ ، وأئمة كل علم ، غزا التتار الشرق الاسلامي وأنزلوا على العالم الاسلامي البلاء والشقاء ، وخربت الحواضر الاسلامية ومراكز الحضارة والثقافة في العالم الاسلامي ، وبدت موجات الهجرة والجلاء قوية واسعة في المدن التي كـانت فريسة الغارات التترية المغولية ، ونزحت أكثر البيوتات الشريفة والاسر العريقة في العلم والصلاح والشرف تهيم على وجههـا في الارض وتبحث لها عن مأوى تأوي اليه ، وتعتصم به عن همجية التتر الوحوش ومعرّتهم وتلقي به رحلها .

وكانت الهند التي يحكمها المماليك الاقوياء من السلالـة التركية ، هي البلد الوحيد في الشرق التي صمدت للتتار والمغول ، وردت غاراتهم مرة بعد مرة ، فلجأ اليها في فترات كثيرة عدد من أكرم الاسر وأعرقها في العلـم والذكاء والشرف في تركستـان وايران ، وأقام في الهند عشائر كثـيرة توارثت العلم والنبوغ

والشرف والمناصب الدينية كابرا عن كابر ، وكثرت هذه العشائر في عصر شمس الدين التحشي وغياث الدين بلبن وعلاء الدين الخلجي، يتحدث عنها وعن سبب هجرتها مؤرخ الهند القديم ضياء الدين البرني ويقول:

« ان هذه الاسر وهؤلاء الأشراف والسادة والعلماء الأجلاء انما هاجروا في حادثة جنكيز خان الملعون كان منها أمراء وقواد وأساتذة كبار وقضاة وشيوخ أجلاء ، ومربون كبار » (١)

ونبغ في هذه الاسر الكريمة وفي من أسلم على يدها من الاسر الهندية الكريمة رجال في الدين والعلم والادارة والسياسة ، وكان منهم رجال عزّ نظيرهم في العالم الاسلامي .

نبغ في الهند في هذا الشعب الاسلامي الهندي ملوك وامراء ووزراء وقادة للجيوش وعلماء ومؤلفون يتجمل بهم تاريخ الاسلام العام ويكاد يكون كثير منهم العلم المفرد في بعض صفات الكمال ونسيج وحده فيها .

والذي يقرأ سيرة الحاكم العبقري شيرشاه السوري (٩٥٢هـ) ويعرف مآثره في إدارة البلاد ورفاهيتها ومشاريعه العمرانية الضخمة البديعة وقوانينه العادلة وتشريعاته الدقيقة وإنتاجه السريع الضخم — وقد ذكرنا بعض ذلك في الفصل السابق — ويعرف أن كل ذلك قد تمّ في خمس سنوات فقط ، وهي المدة التي

---

(١) راجع تاريخ فيروز شاهي عهد السلطان غياث الدين بلبن .

حكم فيها شيرشاه ، وبعضه يعجز عنه الحكومات الكبيرة المنظمة في آجال طويلة ، ولم يستطع كثير من الملوك والحكام الانجليز على كثرة الوسائل وتقدم المدنية وحدوث الآلات أن يأتوا ببعض ما أتى به هذا الملك العصامي في عصر متخلف في الصناعة والمدنية، يبهر بعظمة هذا الرجل ، ويؤمن بعبقريته ويصدق أن هذا الرجل فريد في العصور والامصار ويستحق أن يوضع في صف أعاظم الرجال في العالم [١] .

والذي يقرأ سيرة السلطان أورنك زيب عالمكير (م ١١١٨) وما جمع من فضائل علمية وعملية ، ويقرأ تاريخه الحافل بجلائل الاعمال ويقرأ جهاده المتواصل الذي لم ينقطع ولم يتوقف يوما واحدا في خمسين سنة حكم فيها ، وفتوحاته العظيمة واصلاحاته الكبيرة وتقشفه في الحياة وتحمله للشدائد ، واستقامته وصلابته ومغامراته في سن عالية [٢] ويقرأ نظام أوقاته ، ومحافظته على الفرائض والسنن مع إشرافه الدقيق على أوسع مملكة في عصره ، واشتغاله بالعبادات والعلم ، والمطالعة آمن بأن هذا الرجل لا يوجد له نظير في علو الهمة وقوة الارادة في ملوك العالم وأنه خُلِقَ من حديد وأنه من نوادر رجال العالم في جميع العصور وفي جميع

---

(١) اقرأ ترجمته في « نزهة الخواطر » المجلد الرابع .

(٢) عمّر أورنك زيب تسعين سنة ولم يزل مرابطا مناضلا الى آخر ساعاته ، وفي كتاب (رجال من التاريخ) لعلي الطنطاوي طرف من ترجمته .

الأجيال .

ومنهم السلطان الفاضل العادل المحدث الفقيه مظفر حليم الكجراتي (م ٩٣٢) الذي روى عنه التاريخ من نوادر الإخلاص والايمان والاحتساب والتقوى والعمل بالعزيمة والعدل والايثار والحمية في الدين والتبحر في العلم ما يندر وجوده في سير كبار الزهاد والربانيين وكبار المخلصين فضلا عن الملوك والسلاطين ، والذي أبت همته وحميته أن يمكث في بلاد من أغنى بلاد الله وأجملها في الهند ، (ماندو) لما كلمه أمراؤه في أن يحتفظ بها بعد فتحها وأمر جيوشه بالانصراف وقال : إن أول خطوة خطوتها الى هذه الجهة كانت لله تعالى والثانية كانت لنصرة ملك مسلم ، وقد حصل المراد[1] فلا أريد أن أحبط عملي وأخلط عملا صالحا وآخر سيئا .

والذي استطاع أن يقول في مرض وفاته تحديثا بنعمة الله :

« ما من حديث رويته عن أستاذي المسند العالي مجد الدين بروايته عن مشايخه إلا وأحفظه وأسنده وأعرف لرواية نسبته وثقته ، وأوائل حاله الى وفاته ، وما من آية إلا وقد منّ الله عليّ بحفظها وفهم تأويلها وأسباب نزولها وعلم قراءاتها ، وأما الفقه

---

(١) القصة مبسوطة في تاريخ كجرات للآصفي المعروف بظفر الوالة ، والكتاب بالعربية ، وكذلك في كتاب « نزهة الخواطر » ج ٤ وهي مروية في ترجمة من كتاب (رجال من التاريخ) لعلي الطنطاوي .

فأستحضر منه ما أرجو به مفهوم ، من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين ، ولي مدة أشهر أصرف وقتي باستعمال ما عليه الصوفية واشتغل بما سنه المشائخ لتزكية الانفاس عملا بما قيل ، « من تشبه بقوم فهو منهم » وها أنا أطمع في شمول بركاتهم متعللا بعسى ولعلّ ، وكنت شرعت بقراءة معالم التنزيل وقد قاربت إتمامه إلا أني أرجو أن أختمه في الجنة ان شاء الله تعالى » .

وفاضت روحه وهو يدعو بدعاء سيدنا يوسف على نبينا وعليه الصلاة والسلام ، « رب قد آتيتني من الملك وعلمتني من تأويل الاحاديث فاطر السموات والارض أنت وليّي في الدنيا والآخرة توفني مسلما وألحقني بالصالحين »[1] .

هذا في الملوك ، وأما في الوزراء فنجد مثل الوزير عماد الدين الكيلاني المشهور بمحمود كاوان (٨٨٦ هـ) الوزير العالم الفاضل الذي جمع بين رئاسة الدين والدنيا ، وطبقت شهرته الافاق ، وانفرد في حسن الادارة وكثرة العبادة ووفور التقوى ، وغزارة العلم ، وبلاغة القلم ، وصناعة الانشاء ومدحه العلامة عبد الرحمن الجامي الشاعر الصوفي المعروف ببيته السائر :

هم جهان راخواجه وهم فقررا ديباجه او ست[2]
آيـة الفقـر ولكـن تحـت أستـار الغنـى

---

(١) أقرأ ترجمته الحافلة في « نزهة الخواطر » ج ٤ ،

(٢) انه سيد من سادات العالم ، وجمال للزهد ، وزينة للتقوى .

ونجد مثل الوزير أبي القاسم عبد العزيز الكجراتي المشهور بآصف‌خان وزير كجرات المتوفى (٩٦١ هـ) العالم الاصولي الفقيه المحدث المدرس القدير الذي أفرد علاّمة الحجاز شهاب الدين بن حجر المكّي رسالةفي مناقبه وذكر له فيها من الفضائل العلمية ومكارم الأخلاق ، والاشتغال بالعبادات ، والاخذ بعوازم الامور ودقائق التقوى ، والعكوف على المطالعة والتدريس وتشجيع العلم والعلماء والاحسان اليهم ، وحسن الاستقامة ما يحير الالباب ويدهش العقول ، ومدحه شعراء الحجاز بقصائده ، ورثوه على وفاته رثاءا رقيقا حزينا [١]

ومنهم الامير الكبير الاديب الشاعر البطل الاعظم صاحب السيف والقلم ، عبد الرحيم بيرم خان الدهلوي قائد قواد الحكومة المغولية في الهند (م ١٠٠٥ هـ) الذي اضطر مؤرخ أمين لا يكيل المدح جزافا أن يقول في ترجمته :

« كان له من النقاوة التامة والشهامة الكاملة وعلو الهمة والكرم ما لا يمكن وصفه مع المعرفة للادب ومطالعة كتبه ، والاشراف على كتب التاريخ ، ومحبة أهل الفضائل وكراهة أرباب الرذائل ، والنزاهة والصيانة والميل الى معالي الامور حتى لم أجد ممن كان قبله أو بعده [٢] من يساويه في مجموع كمالاته [٣]

---

(١) اقرأ ترجمته في « نزهة الخواطر » المجلد الرابع .

(٢) يعني في الامراء والوزراء .

(٣) « نزهة الخواطر » ٣١٧ المجلد الخامس .

وقال عبد الرزاق الخوافي في مآثر الامراء :

« انه كان أوحد أبناء العصر في الشجاعة والكرم ، ماهرا في اللغات المتنوعة من العربية والفارسية والهندية وغيرها ، وكان يتكلم في كلٍّ من تلك الالسنة بغاية الفصاحة والطلاقة ، ويقول الشعر الرقيق البليغ فيها » .

وعبد الرحيم من الشعراء المعدودين في اللغة الهندية [1] الذين لهم في تاريخ أدب البلاد مكان مرموق محترم، ومن فحول شعراء الفارسية .

أظلّ العالم الاسلامي بعد الغارة المغولية انحطاط في التفكير والتأليف وفقد الابتكار والابداع إلاّ في النادر ، وقد ظهر هذا الانحطاط في شكل واضح بعد القرن الثامن ، وبدأ الإعياء الفكري والاسترخاء الأدبي في أكثر نواحيه ولم ينهض إلا أفذاذ كان لهم إنتاج وابتكار ظاهر كالعلامة عبد الرحمن بن خلدون ، وعاشت الهند مدة طويلة في عزلة عن هذا الإعياء والعقم ، فقد كانت الهند لبُعدها عن الغارات التترية ووقوعها في أقصى الشرق الاسلامي من أقل البلاد تأثرا بالهجوم التتري وويلاته ، وكانت لجوء كبار العلماء وكرام البيوت اليها لا تزال قوية في الحركة العلمية ، وبقي فيها نشاط وانتاج في العلم والتأليف والتفكير مدة طويلة ، ووجد فيها في فترات كثيرة رجال يستحقون أن

(١) هي غير اللغة الاردية وهي لغة الهند التي كان يتكلم بها أهل الهند قبلَ أن تنتشر لغة اردو .

يعدوا من نوابغ الاسلام ، ويبدو في مؤلفاتهم وأفكارهم شيء كثير من الابتكار والابداع والطرّافة ، والشذوذ عن الاسلـوب المألوف المعروف في ذلك العصر كالشيخ شرف الدين أحمد بـن يحيى المنيري البهاري (٧٧٢ هـ) صاحب الرسائل البديعة في التربية وحقائق الشريعة ، والشيخ أحمد بن عبد الرحيم ولي الله الدهلوي (م ١١٧٦) صاحب « حجة الله البالغة » و « ازالـة الجفا » والشيخ رفيع الدين الدهلوي (م ١٢٣٣ هـ) صاحب « أسرار المحبة » و « تكميل الاذهان » والشيخ اسماعيل بـن عبد الغني الدهلوي (١٢٤٦) صاحب « العبقات » و « منصب الامامة » الذين يجد القارىء في رسائلهم ومؤلفاتهم كثيرا مـن الافكار الطريفة والتحقيقات الجديدة ، والاستنباطات اللطيفـة التي تخلو عنها كتب أكثر معاصريهم .

أصبحت الهند لاسباب تاريخية طبيعية [1] في العهد الاخير مركزا للدعوة الدينية القوية والتجديد الاسلامي العام الـذي تخطّى حدود الهند الى أقطار أخرى ، ووجِـد فيهادعاةومجددون من أفضل الدعاة والمجددين الذين عرفهم تاريخ الاسلام فيالعهد الاخير قوّة دعوة ، ورسوخا في العلم ، وعمق تأثير وانتشـار رسالة ، وتشبثها بالدعوة الاسلامية الاولى .

عرفنا منهم الشيخ أحمد بن عبدالاحدالسرهندي (م١٠٣٤هـ)

---

(١) سوف نشرحها في كتابنا الجزء الثاني من « رجال الفكـر والدعوة في الاسلام » .

الذي لقّبته الهند بحق « مجدّد الألف الثاني » وقد ظهر منه تجديد صلة الشعب الهندي بالاسلام في هذه البلاد ، والانتصار للشريعة وحفظها من تحريف الغافلين ، وانتحال المبطلين ، وتأويل الجاهلين ، والحاد المتصوفين الوجوديين [1] ومن صرف الحكومة المغولية القوية من اللادينية ، وتلفيق الاديان ، وايثار البرهمية والوثنية الهندية التي اندفعت اليها بتهور وحماسة ، الى التدين بدين الاسلام واحتضانه ، ولم يكن الملك الصالح المؤمن المجاهد السلطان أورنك زيب عالمكير إلا ثمرة من ثمرات دعوته وجهاده [2] وانتشرت طريقته العلية بواسطة العلامة خالد الشهرزوري الكردي (م ١٢٤٢ هـ) [3] في بلاد الروم والعرب والحجاز وبلاد الاكراد وسورية وتركيا انتشارا لم تعرف لطريقة .

وكان منهم السيد أحمد بن عرفان الشهيد (١٢٤٦ هـ) الذي قام بالدعوة الى الدين الخالص ، والجهاد في سبيل الله ، وتأسيس الحكومة الشرعية على منهاج الخلافة الراشدة ، ونفخ روح

---

(١) الغلاة في عقيدة وحدة الوجود .

(٢) تحدثنا عن ذلك قليلا في رسالة «الدعوة الاسلامية وتطوراتها في الهند » .

(٣) راجع كتاب « أصفى الموارد في ترجمة حضرة سيدنا خالد » تأليف الشيخ عثمان ، و « سل الحسام الهندي لنصرة مولانا خالد النقشبندي » تأليف العلامة محمد امين بن عمر عابدين صاحب « رد المحتار » (م ١٢٥٢ هـ) .

الجهاد والحماسة والتضحية في الهند ، وهبت بجهوده في الهند ريح الايمان وعادت نفحة من نفحات القرون الاولى ولم يعرف مثله في العصور الاخيرة في قوة التأثير وعلو الهمة ، والحمية الدينية ولم يُعرف مثل جماعته وأتباعه في الصلابة في الدين والاستقامة على الشريعة وحبّ الجهاد ، وحسبك ما قال الامير صديق حسن خان صاحب المؤلفات الشهيرة الكثيرة :

« ولم نعرف ولم يخبر الناس بوجود رجل يضارعه في كماله في الماضي القريب في قطر من أقطار العالم والفوائد التي حصلت للخلق من هذه الجماعة المنصورة لايبلغ معشارها فوائد مصلحين آخرين من شيوخ الارض وعلمائها »[1]

وقد أصبحت الهند مركزا في عهدنا للدعوة الدينية العالمية مرة أخرى وكان داعيها مولانا محمد الياس الدهلوي (١٣٦٣ هـ) من أقوى الدعاة الذين عرفهم العالم الاسلامي في العهد الاخير ولم نر مثله ــ في البلاد التي عرفناها وزرناها ــ في قوة الايمان بالغيب والاعتماد على الله وقوة الدعوة ، والانقطاع اليها، والتجرد لها ، والنجاح في مهمته ، وقد انتشر دعاته وجماعاته في العالم الاسلامي ، وهي في نشاط مستمر[2] وغدو ورواح في الاقطار

---

(١) تقصار جنود الاحرار ١١٠ و ١٠٩ .

(٢) يقوده ويشرف عليه خلفه البر الراشد مولانا محمد يوسف الدهلوي ومركزه نظام الدين في دهلي .

الاسلامية وفي أوربا وأمريكا واليابان ، وقد أشعلت هذه الدعوة مجامر القلوب وألهبت جذوة الايمان في آلاف مؤلفة من المسلمين.

هذه أمثلة قليلة جدا من أعلام الهند ورجالاتها الكثيرين في مختلف ميادين الحياة وأصناف الكمال والنبوغ ، وإن نظرة خاطفة في كتاب « نزهة الخواطر » الذي يتضمن تراجم خمسة آلاف من أعيان الهند ورجالها تدل على غناها وخصبها واتناجها ، وكثرة من نبغ فيها ونهض من أرضها من أصحاب الفضل والكمال والنبوغ.

ولم تزل ولا تزال خلية الاسلام في الهند تعسّل ، والشجرة التي غرستها اليد الكريمة المخلصة ، وسقاها ... الصالحون من عباد الله بدموعهم والمجاهدون في سبيل الله بدمائهم في كل عصر تثمر وتؤتي أكلها كل حين بإذن ربها ، وكان في الشعب الاسلامي الهندي في كل جيل وفي كل عصر رجال أثبتوا نبوغهم ورجاحة عقولهم ، وذكاءهم النادر ، ومواهبهم الفريدة ، وتفوّقهم الذهني على الشعوب الاخرى وكان فيه ــ بعد استقرار الحكم الانجليزي في البلاد رغم جهود الحكومة الانجليزية العظيمة في إخماد جذوة الذكاء ، وتجفيف منابع الثقافة في هذا الشعب الاسلامي [1] نوابغ في التشريع والقضاء ، وفي الادارة والحكم ، وفي علوم الرياضة والحساب ، وفي فن التعليم وفلسفته ، وفي السياسة وعلم الاقتصاد

---

(١) اقرأ كتاب « W. W. Hunter : Indian Musalmans » لوليم هنتر .

وفي العلوم الطبيعية والكيمياء ، وفي الادب الانجليزي ونقده ، أقرّ بفضلهم ونبوغهم علماء هذه الفنون في بلاد الانجليز ، وكان منهم خطباء وكُتّاب ، ومؤلفون في الانجليزية لا يقلّون عن أدبائها وكتّابها في الاقتدار على اللغة والتصرف في مناهج الكلام وجمال الاسلوب .

وكان فيه قادة سياسيون ، وزعماء ودستوريون ، وخطباء يوضعون في الصف الاول من القادة السياسيين ، والزعماء والخطباء في هذا العصر .

وكان فيه شعراء وقادةالفكر الذين كانوا اصحاب إبداع وعبقرية في الشعر ، وأصحاب دعوة ورسالة في الفكر ، وتغنّى بشعرهم الاسلامي إيران ، وأفغانستان ، وتركيا ، وترجم الى لغات العالم الاسلامي .

اما الثقافة العربية فلا يزال الشعب الاسلامي الهندي متمسكا بها ، محافظا عليها ، منتجا فيها ، وتدل الآثار والقرائن على تكوّن مدرسة أدبية خاصة فيها ، في الادب العربي والكتابة الاسلامية ، تجمع بين البراعة الادبية والاشراق الروحي ، والايمان العميق ، والدعوة الصريحة القوية .

كل ذلك يدل على أن هذا الشعب الاسلامي الهندي ـ الذي يمر بمرحلة عصيبة في حياته ويواجه مشكلات ـ صالح للبقاء ، قائم بالكفاح وإنه صاحب شخصية قوية خالدة .

تأثير اللغة العربيّة في اللغات الهنديّة (١)

بقلم ...

من مظاهر تأثير المسلمين في ثقافة الهند وحضارتها تأثير اللغة العربية ــ التي تخصّهم والتي حملوها الى هذه البلاد ــ في لغات الهند ، ولهجاتها وأدبها وحضارتها .

ان تأثير لغة راقية متمدنة في لغة أخرى ليس بدعا من الامور ولا حادثا طريفا في تاريخ اللغات والثقافات ، ولم تزل الحضارات البشرية في كل طور من أطوار المدنية تتبادل الافكار والخواطر ، والكلمات وطرق التعبير ، ولم تزل في أخذ وردّ وإفادة واستفادة وهذه طبيعة الحياة والرُقيّ ، وكل لغة سدّت في وجهها أبواب الاستفادة والاستعارة وبقيت متمسكة بتراثها القديم لاتزيد في ثروتها ولا تضيف الى قديمها فقد قطعت صلتها عن المدنية وحرمت نفسها الازدهار والتوسع ، وتخلفت عن ركب الحياة وأصبحت من اللغات الجامدة المحدودة التي لا تسعف الاديب والشاعر ولا تقضي حاجة الانسان الحيّ المتمدّن .

كنت أعتقد أن اللغة العربية تكوّن جزءا لايستهان به من أجزاء لغة « أردو » التي هي مزيج اللغات الاربعة العربية

---

(١) حديث أذيع من الاذاعة الهندية في دهلي القسم العربي .

والفارسية والتركية والسنسكريتية ووليدها جميعا ، ولكني كنت
أحدّد القضية في الكلمات العربية التي بقيت على شكلها العربي
في « أردو » وكنت أحدّد القضية في أردو التي لها نسب قريب
مع اللغة العربية ولكن شكرا للقائمين على إدارة الاذاعة الهندية
أن اقتراحهم لحديث عن موضوع تأثير اللغة العربيـة في لغات
الهند ، أثار في نفسي رغبـة في البحث عـن هذا الموضـوع ،
وأعترف أنني استفدت كثيرا وصادفتني في هذه الرحلة الممتعة
شخصيات متنكرة كانت ترتدي الحلة الوطنية فلما بحثت عنهـا
وجدتها عربية خالصة ، وإليكم مذكرة هذه الرحلة الشائقة ،
والتعارف اللذيذ والبحث المفيد .

كان واجبي قبل أن أبدأ هذه الرحلة أن أتأكد من وجود
جهاز السفر ونفقاته ، لأني سأجول في أنحاء الهند ، والبلاد عريضة
واسعة فانتقل ذهني الى كلمة « دام » التي تستعمل في أردو وفي
الهندية بمعنى النفقة والمال ، فاذا هي مأخوذة مـن كلمة درهم
العربية التي كانت تطلق في معنى المال مطلقا ، فيقال الـدرهم
والدينار ، ثم انتقل ذهني الى أجزائه وتفاريقه فمن تفاريفـه
الصغيرة « كيرانت » التي لاتزال تستعمل في الاوراق المالية في
المقاطعات المتحدة الشمالية الغربية فاذا هي قيراط العربية ، وبهذه
المناسبة تذكرت كلمة (أشرفي) وهي العملة الذهبية التي كانت
تستعمل في القديم ، ولاتزال مستعملة في الكلام وبحثت عنها في

التاريخ فرأيت البحّار العربي المشهور ابن ماجد أسـد البحر يقول في كتابه « الفوائد في أصول البحر والقواعد » « والحادي عشر برسى الاشرف ضارب سكة الاشرفي » .

ونزلت ضيفا في هذه الرحلة عند صديق هندي كريم أكـرم وفادتي وأحسن ضيافتي ، وتأنق في صنع الاطعمة واستعرضت مائدته السخية فاذا من أنواع الاطعمة « فيرني » وهو رزمسحوق يطبخ مع اللبن الحليب والسكر ، وكان يقال له في القديم « المهلبية » وبحثت عنه فوجدت محمد الخوارزمي يذكر في الاطعمة التي كانت تهيّأ للمرضى « الفراني » وكان يتركب من رغيف يختمر عجينه كان ينقع في اللبن ويضاف اليه السكر .

وكان من أنواع هذه الاطعمة « قلية » ويطلق على إدام اذا كان فيه لحم ومرق وخضر وأصلها العربي « قلّية » بالتشديـد وهو من قلى يقلي قليا اللحم وغيره أنضجه ، وكان بجوار القلية « كباب » وهو من الكب ، وهو القلب على الوجه ، ويطلق على الطعام الذي يشوى مقلوبا على النار وفي المعاجم العربية « كبّب عمل الكباب » وإن أنس في هذا الصدد فلا أنس « شوربه » التي يراد منها المرق وأصلها شربة وهي ما تشرب دفعة واحدة .

وعجبت لما سمعت مضيفي يطلب النار جيلة على عادة أهـل الهند ويأمر الخادم بتهيئة « سُلفه » وهو مصطلح من مصطلحات أصحاب النار جيلة وفكرت فيها وفي أصلها فاذا أصلها عربي ،

والسلفة في لغة العرب « ما يعجل الرجل من الطعام قبل الغداء» •

ولما انتهيت من الطعام التفتّ الى البيت وأثاثه فوجدت بدهشة أنّ كثيرا من أجزائه لها أسماء عربية ولا يعرف الناطقون بها أن أصلها عربي صميم فأول ما استرعى نظري « الزربية » التي كنت جالسا عليها ويسميها أهل الهند « قالين » فوجدت أن أصله « القالي » وهو الفراش المنسوب الى قاليقلا وكانت مدينة على نهاية المملكة الاسلامية واليها نسب أبو علي القالي ، يقول ياقوت الرومي في معجم البلدان : « وتعمل بقاليقلا هذه البسط المسماة بالقالي اختصروا في النسبة الى بعض اسمه لثقله » •

ومن أثاث البيت ورياشه انتقل فكري الى من يرجع اليه الفضل في تكوّن هذا البيت ووجوده بهذا الشكل الظريف ،وهو البنّاء المتواضع فوجدت أنه يسمى في الهندية « راج » وهالني أنها كلمة عربية بتغير حرف واحد ، ففي المعاجم العربية : « الراز رئيس البنائين وأصله رائز كشات وشائك ، والريازةحرفةالراز» •
ومقدم البنائين والحاذق منهم يسمى في الهند « مستري » ووجدت أنه محرف من مسطري ، وهو البناء الذي كان يحمل المسطر لتسوية الجدران وتقويمها •

ومن أشغال البنائين والنجّارين الخرط والخراط يقال خرط العود يعني سواه بالمخرطة وخرط الحديد طوله كالعمود ، ولا يزال مستعملا في أردو فيقال « خراد » وما هو الا الخراط لفظا ومعنا •

واستعرضت آلات البنـاء والتصميم فاذا كثيرا من كلماتهـا ومصطلحاتها عربي ، فمنها « ساهول » وهي حديد تربط في خيط طويل لتسوية الجدران ، وقد ذكر الخوارزمي آلة في مفاتيـح العلوم وسماها شاقول ، ووصفها بقوله « هو ثقل يشد به في طرف حبل يسدّه سفلا يحتاج اليه النجّارون والبناؤن » .

ومنها « كنّى وكونيا » وهـو الكونيـا قال الخـوارزمي « يقدّرون بها الزاوية القائمة » .

ورأيت البيت مبيضا قد جدّد تنويره فتذكرت كلمة «قلعى» التي هي في الهند بمعنى التنوير ، ورأيت صاحب لسان العرب يقول :

« والقلعي الرصاص الجيد وقيل هو الشديد البياض ،والقلع اسم المعدن الذي ينسب اليه الرصاص الجيّد » .

ورأيت رجلا واقفا على باب مضيفنا الكريم كالحارس فانتقل ذهني الى كلمة « أَحَدِيْ » وهو الكسول الذي يكون حلس البيت يأكل من غير تعب عيالا على غيره ، ومصدره رجل مفرد كان يقف على باب الملوك والاغنياء يحرس بيوتهم وكان بطبيعة الحال عاطلا لا شغل له ويعيش على رواتبهم وفتات مائدتهم ، ومن هنا نشأت فكرة « احدى » يعني الرجل الكسول الذي يقضي وقته في البطالة .

ودعاني صديقي الى الخروج للنزهة والتفرج فوثب فكري الى كلمة « تماشا » التي يراد منها في الهند وفي كثير من لغاتها

المحلية التفرج فاذا أصلها « تماشي » وهو المشي مع أصدقاء وزملاء للتفرج والتنزه وقد أصبحت مفتوحة على قاعدة الفارسية فيقولون « تمنى » بدل « التمني » و« تماشا » بدل التماشي ، و « تحاشا » بدل التحاشي .

ولا يسع هذا الحديث الوجيز أن يستوعب جميع الكلمات أو نصفها التي تعرفت بها بصفتها كلمات عربية أصيلة صميمة في هذه الرحلة القصيرة وجزى الله عن أهل العلم أستاذنا العلامة الكبير الدكتور السيد سليمان الندوي رحمه الله اذ بحث في هذا الموضوع بحثا علميا دقيقا وعرض أمثلة جميلة من هذا القبيل [1] ولا يزال المجال واسعا أمام الباحثين والمنقبين في اللغة بشرط أن يكونوا متوسعين في معرفة اللغتين اللغة الهندية واللغة العربية ، مطّلعين على مصادرهما القديمة يحملون عناء البحث والتنقيب في المعاجم ودواوين العربية ، لا يتهوّرون ولا يُسرعون بالحكم ، ويرافقون هذه الكلمات في رحلتها الطويلة ، من بادية العرب وعواصم العالم العربي الى صحراء السند الى أودية الكنج الى شاطىء بحر العرب ، وفي جميع أطوارها ومراحلها ، واذا فعلوا ذلك رأوا كيف نفذت اللغة العربية في اللغات الهندية وكيف تسربت ، وغزت الثقافة الهندية والحضارة الهندية ، حتى امتزجت بلحمها ودمها ، وأصبحت جزءا من أجزائها لا ينتبه لكونها كلمات عربية فصيحة ، إلا أفذاذا من الباحثين وأفراد من المحققين ..

---

(١) له في هذا الموضوع بحثان في مجموع مقالاته الادبية واللسانية ومحاضراته ، الذي سماه « نقوش سليماني » .

مراكز العلم والثقافة الإسلامية في الهند

إن أكبر معهد ديني في الهند يستحق أن يسمى أزهر الهند هو معهد ديوبند الكبير ، بدأ هذا المعهد كمدرسة صغيرة لاتسترعي الاهتمام ثم لم تزل تتوسع وتتضخم بفضل جهود أساتذتها والقائمين عليها وإخلاصهم وزهدهم في حطام الدنيا حتى أصبحت جامعة دينية كبيرة بل كبرى المدارس الدينية في قارة آسيا .

وكان افتتاحها في قرية ديوبند من القرى التابعة لمدينة سهارنيور في مسجد صغير سنة ثلاث وثمانين ومائتين وألف هجرية ١٢٨٣ هـ ، أسّسها العالم الجليل المخلص الشيخ محمد قاسم النانوتوي المتوفى سنة ثمان وتسعين ومائتين وألف هجرية ١٢٩٨ هـ ، وكان الإعتماد فيها على الله ثم على تبرعات عامة المسلمين ورزقت من أول يومها رجالا عاملين مخلصين وأساتذة خاشعين متقين ، فسرت فيها روح التقوى والاحتساب والتواضع والخدمة ، ولم يزل نطاق المدرسة يتسع ، وصيتها يذيع ، وشهرة أساتذتها في الصلاح والتقوى والتبحر في علم الحديث والفقه تطير في العالم ، حتى أمّها الطلبة من أنحاء الهند ، ومن الاقطار الاسلامية الأخرى حتى بلغ عددهم في الزمن الاخير (١) خمس

---

(١) عام ١٣٨٠ هـ .

مائة وألف (١٥٠٠) وزيادة .

ويقدّر عدد الذين اشتغلوا في هذه المدرسة بالعلم بأكثر من عشرة آلاف ، والذين نالوا الشهادة منها بنحو خمسة آلاف ، والذين ارتووا بمناهلها من أهل خارج الهند كباغستان وأفغانستان وخيوا ونجارا وقازان وروسيا ، وأذربيجان ، والمغرب الاقصى وآسيا الصغرى ، وتبت والصين وجزائر بحر الهند ، والحجاز والاقطار العربية نحو خمسمائة .

وكان للمتخرجين في دار العلوم تأثير كبير في حياة المسلمين الدينية في الهند ، وفضل كبير في محو البدع وإزالة المحدثات وإصلاح العقيدة والدعوة الى الدين ، ومناظرة أهل الضلال والرد عليهم ، وكانت لبعضهم مواقف محمودة في السياسة والدفاع عن الوطن ، وكلمة حق عند سلطان جائر .

وشعار دار العلوم ديوبند التمسك بالدين ، والتصلب في المذهب الحنفي والمحافظة على القديم ، والدفاع عن السنة .

وتلي دار العلوم الديوبندية في كثرة الطلبة والاعتناء بالعلوم الدينية ، مدرسة « مظاهر العلوم » في مدينة سهارنبور التي تأسست في ثلاث وثمانين ومائتين وألف أيضا ، وهي تشارك دار العلوم في العقيدة والمبدأ والشعار .

وقد خرّجت عددا كبيرا من العلماء الصالحين والرجال العاملين في ميادين العلم والدين ولعلمائها ومتخرجيها آثار جليلة

في شرح كتب الحديث وخدمة هذا الفن الشريف ، وتمتاز هذه المدرسة وأساتذتها وطلبتها ببساطة في المعيشة والقناعة بالكفاف ، والقوة في الديانة .

وتقابل مدرسة ديوبند وشقيقاتها وما كان على شاكلتها من المدارس الدينية القديمة ، الجامعات المدنية العصرية التي أسَّسها المسلمون في عليكره ودهلي وحيدر آباد ، لتعليم أبناء المسلمين وشبابهم العلوم العصرية واللغات الاجنبية وإعدادهم للوظائف الرسمية والمراكز الحكومية وللمساهمة في حياة البلاد وخيراتها وإدارتها ، وأشهر هذه الجامعات وأقدمها وأعظمها تأثيرا في عقلية المسلمين وسياستهم جامعة «على كره» الاسلامية التي تعدّ من أرقى الجامعات في الهند وأوسعها ، أسَّسها الزعيم المسلم الشهير سرسيد أحمد خان باسم «مدرسة العلوم» وقد أصيب المسلمون في إثر اخفاق الثورة العظيمة التي قاموا بها سنة سبع وخمسين وثمان مائة وألف بجمود تعليمي واجتماعي وتسرَّب اليأس إلى نفوسهم وفقدوا الثقة بأنفسهم ومستقبلهم وأصابتهم دهشة الفتح وأساءت الحكومة الانجليزية الظن بهم واستغنت عنهم في وظائفها وإدارتها ، فأصبح المسلمون ـ الذين كانوا يملكون زمام البلاد في العهد الماضي القريب ـ لا نصيب لهم في سياسة البلاد وإدارتها ولا نشاط لهم ، ورأى السيد أحمد خان ـ وكان رجلا شديد التأثر مرهف الحس ـ أن علاج ذلك هو تعلم الانجليزية

وآدابها وعلومها التي قاطعها المسلمون ، والظهـور في مظهر سيد البلاد في الزي واللباس والحضارة والاجتماع حتى يزول « مركب النقص » وتولي الوظائف الحكومية ، وقد نجحت جامعة عليكره في رسالتها نجاحا كبيراوأقبل عليها أبناء الأسـر الشريفة « الارستقراطية » في عدد كبير ، وتخرج فيها رجـال كثير شغلوا وظائف كبيرة في الحكومة وتمتعوا بثقتها ، وقدلعبت الجامعة وأبناؤها دورا مؤثرا في حياة المسلمين وسياسة البـلاد ، ومنها نبعت حركة القومية الاسلامية تقابل حركةالقومية الهندية والوطنية يتزعمها رجال من الطبقة الارستقراطية في المسلمـين ، وميزانيتها السنوية نحو ٤٠٠٠٠٠ جنيه (أربع مائة الف جنيه) وفيها نحو خمسة آلاف طالب فيهذه السنة (١٩٦٠) .

وقد انفصل عن جامعة عليكرة بعض ابنائها وخيرة متخرجيها أيام حركة الخلافة والوطنية ، وأسسوا جامعة شعبية مستقلة في السياسة وتعليمها سنة ١٩٢٠ ، يتزعمها الزعيم الاسلامي الكبـير مولانا محمد علي وقد انتقلت من عليكرة الى دهلي واشتهرت باسم « الجامعة الملية الاسلامية » يمتاز أساتذتها وإدارتهاـوكان على رأسها الرجل التعليمي العالمي الدكتور ذاكر حسين حاكـم ولاية بهار الحالي ـ بنزعتهم الوطنية وروح التضحية والايثـار، ظلوا مدة طويلة يكافحون التيار ، ويعيشون في شظف وعسـر وكان لهم نشاط ظاهر في ميدان الثقافة والتعليم ومحصول ذو

قيمة في الادب والعلوم ، وهي الآن من الجامعات التي تنفق عليها حكومة الهند .

وتمتاز الجامعة العثمانية في حيدر آباد بأنها جامعة درست العلوم العصرية في « أردو » لغة الهند العلمية وعُنيت بنقل العلوم الحديثة وترجمة الكتب المهمة في الفلسفة وعلوم الطبيعة والطب والسياسة والاقتصاد والتاريخ إلى أردو ووضع المصطلحات العلمية فيها ، وبذلك أدت خدمة عظيمة للمسلمين وثقافة الهند .

وتتوسط بين المدارس القديمة التي تتمسك بالقديم وترى العدول عنه ضربا من التحريف ونوعا من البدع ، وبين الجامعات المدنية التي تقدس الجديد وتستهين بكل قديم ، تتوسط بين تلك وهذه دار العلوم التابعة لندوة العلماء التي تأسست في لكهنؤ سنة اثنتي عشرة وثلاث مائة والف هجرية بيد العالم الرباني الشيخ محمد علي المونكيري وزملائه المخلصين الذين خافوا على المسلمين من المحافظين ومن المتطرفين ومن اعتزال العلماء عن الحياة وتخلفهم عن ركب الثقافة والعلم ومن العصبيات المذهبية والمشاجرات الفقهية التي قويت ونشطت في العهد الاخير .

تأسست ندوة العلماء ودار العلوم التابعة لها على مبدأ التوسط والاعتدال والجمع بين القديم الصالح والجديد النافع ، وبين الدين الخالد الذي لا يتغير ، والعلم الذي يتغير ويتطور

ويتقدم ، بين طوائف أهل السنة التي لا تختلف في العقيدة والمنصوص ، وقامت من أول يومها على الايمان بأن العلوم الاسلامية علوم حية نامية وأن منهاج الدراسة خاضع لناموس التغير والتجدد فيجب أن يتناوله الاصلاح والتجديد في كل عصر ومصر وأن يزاد فيه ويحذف منه بحسب تطورات العصر وحاجات المسلمين وأحوالهم .

عُنِيت دار العلوم بصفة خاصة بالقرآن الكريم ــ الرسالة الخالدة ــ وتدريسه ككتاب كل عصر وجيل ، وعُنيت باللغة العربية التي هي مفتاح فهمه وأمينة خزائنه ، ووجهت عنايتها الى تعليم هذه اللغة الكريمة كلغة حية من لغات البشر يكتب بها ويخطب لا كلغة أثرية دارسة لا تجاوز الاحجار أو الاسفار كما كان الشأن في الهند ، وقلّلت قسط بعض العلوم القديمة التي لاتفيد كثيرا وأبدلتها ببعض العلوم العصرية التي لا غنى عنها للعالم العصري الذي يريد أن يخدم دينه وأمته ، واجتهدت أن تخرج رجالا مبشرين بالدين الاسلامي الخالد لأهل العصر الجديد شارحين للشريعة الاسلامية بلغة يفهمها أهل العصر وبأسلوب يستهوي القلوب ، أمة وسطا بين طرفي الجمود والجحود ، وقد نجحت في مهمتها نجاحا لا يستهان بقيمته فأنجبت رجالا هم خير مثل للعالم المسلم العصري ، لهم آثار جميلة خالدة ، في الادب الاسلامي وعلم التوحيد لأهل العصر الجديد ، والسيرة النبوية ــ على صاحبها الصلاة والسلام ــ والتاريخ .

وعلى طرازها مدرسة كبيرة تسمى « مدرسة الاصلاح » في سرا ألمير أسسها العالم الكبير الشيخ حميد الدين الفراهي عام ١٣٢٦ هـ (١٩٠٩ م)ولها عناية خاصة بالتفسير وفهم القرآن على طريقة مؤسسها الشيخ الفراهي ٠

وقد أسس المتخرّجون في الندوة « دار المصنفين » أعظم كره عام ١٩١٤ م وهي من المؤسسات العلمية الكبيرة في الهند وكان العلامة السيد سليمان الندوي رئيسها مدة وجوده في الهند نشرت كتبا كثيرة متنوعة في الدين والادب والتاريخ بلغ عددها الى عام ١٣٨٠ هـ الى تسعين كتابا لاتستغني عنها مكتبة في الهند وهي تصدر مجلة علمية راقية شهرية باسم « معارف » يحررها الاستاذ معين الدين أحمد الندوي ٠

وفي دهلي مؤسسة علمية تصدر كتبا في الثقافة والتاريخوهي « ندوة المصنفين » نشأت عام ١٩٣٨ م وتصدر مجلة علمية شهرية وهي مجلة برهان يحرّرها الاستاذ سعيد أحمد الاكبر آبادي رئيس القسم الديني في جامعة عليكره ولها مطبوعات قيمة حازت القبول والتقدير في الاوساط الاسلامية العلمية بلغ عددها الى (٨٨) الى عام ١٣٨٠ هـ ٠

وفي لكهنؤ « المجمع الاسلامي العلمي » قام حديثا وهو يعمل في الوسط المثقف بالثقافةالجديدة ، ومن أقدم الجمعيات التعليمية التي كان لها فضل في نشر الوعي السياسي والثقافي

« مؤتمر التعليم الاسلامي العام » الذي أسّسه سيد أحمد خان عام ١٨٨٦ م في عليكره يعالج قضية تعليم الشباب المسلم في مدارس الحكومة ، ومنه نبعت « العصبة الاسلامية Muslim League » عام ١٩٠٦ م ، وقد ضعف نشاط هذا المؤتمر بعد التقسيم لتغير الوضع السياسي والثقافي في الهند .

ومن المؤسسات العلمية الكبيرة التي كان لها فضل كبير في إحياء الكتب الدينية والعلمية وبعثها من مدافنها في المكتبات العتيقة ونشرها في العالم الاسلامي دائرة المعارف في حيدر آباد التي تأسست عام ١٣٠٦ هـ – ١٨٨٨ م بتوجيه العلامة السيد حسين البلكرامي ومولانا عبدالقيوم ومولانا أنور الله خان أستاذ سمو النظام ، وقدنشرت أكثرمن مائة وخمسين كتابا قيّما ، من كتب الحديث وأسماء الرجال والتاريخ والعلوم الرياضية والحكمة حرمها العالم الاسلامي والأوساط العلمية من عهد بعيد وتسامع بها العلماء والمدرسون فكانت خدمة جليلة للعلم والدين وبرهانا على ما كان – ولا يزال – للمسلمين من اتصال روحي وفكري بالثقافة الاسلامية وحب عميق لها ، وقد اعترف بجهود هذه المؤسّسة العظيمة وجلالة عملها وقيمة ما تنشره من التراث العلمي كبار العلماء ورجال الثقافة في الشرق وأوربا ، وقد قال العلامة الشيخ إبراهيم الجبالي رئيس بعثة الازهر التي زارت الهند عام ١٩٣٧ م :

« إنا نعترف لرجال دائرة المعارف بحيدر آباد بتلك الجهود الموفقة التي بذلوها في خدمة العلم ونشر الثقافة العربية ، فقد وجَّهوا هممهم العالية إلى إحياء الكتب القيمة التي جادت بها قرائح الأئمة المتقدمين وأتى عليها حين من الدهر ، وهي مختفية عن الاعين حتى عفارسمها ، وإن كان لا يزال يملأ الأسماع اسمها وطالما تشوقت الاذهان الى الارتشاف من بحارها كما استقيت الآذان بشهرتها ، واسمها فعمدوا ـ حفظهم الله ـ إلى التنقيب عنها والسعي وراء العثور عليها ثم مقابلة نسخها لإزالة ما علق بها من التشويه حين نسخها ثم تكميل ما نقص منها وتصحيح الغلطات التي أدخلت عليها ،لا يبالون في سبيل ذلك بما يتكبدون من مشاق الأسفار ومتاعب النقل والتصحيح والمقابلة وما يتحملون في سبيل ذلك من عظيم النفقات المالية [1] » .

ولما قررت الجامعة العثمانية في حيدرآباد تدريس العلوم والفنون في « أردو » أنشأت « دار الترجمة » في سنة ١٣٣٥ هـ وقد نشرت ٣٥٨ كتابا في التاريخ والجغرافية والسياسة وعلم الاقتصاد والدستور وعلوم العمران والفلسفة والمنطق وما بعد الطبيعة ، وعلم النفس والأخلاق وعلوم الرياضة والطبيعة وعلم الحياة والكيمياء والطب والهندسة ، وغيرها ، وكان من أعمالها الجليلة وضع المصطلحات العلمية وترجمة المصطلحات من اللغات الاوربية الى أردو .

---

(١) رسالة علمية تاريخية طبع دائرة المعارف ـ ح ، ط ، .

وكانت ميزانيتها السنوية ٢٦١٤١٥ جنيها ، وقد وقفت وعطّلت بعد التقسيم سنة ١٩٤٨ م ووقع في مكتبتها حريق أتلفها [١] ، وضيّع هذا التراث الثمين ، وللجماعة الاسلامية التي مركزها الهند نشاط طيب واتناج ذو قيمة في نشرالادبالاسلامي، وتأليف الكتب الدراسية للنشء الاسلامي في « أردو » و « الهندية » وبها مدرسة نموذجية في « رامبور » .

وللمسلمين في جنوب الهند (مدارس وكيرله بلادملابار) نشاط كبير في نشر التعليم الديني والمدني وتأسيس المدارس الدينية العربية والكليات الاسلامية ، ويمتاز أهل ملابار في ولاية كيرله بشغفهم باللغة العربية وتمسكهم بها ولهم مدارس منتشرة في المديريات والمدن الكبيرةوما يتبعها من القرى ، تعلّم فيها اللغة العربية كروضة العلوم وسلّم السلام ومدينة العلوم وغيرها ، وعلماء هذه المنطقة أقدر على اللغة العربية منهم على لغة أردو التي هي لغة الشعب الاسلامي في الهند ، حتى يحتاج زائر من الشمال إلى التفاهم معهم عن طريق اللغة العربية .

وفي مدراس مدارس عربية من أشهرها « الباقيات الصالحات» في ويلور Vellore وجامعة دار السلام في عمر اباد وقد كانت المدرسة الجمالية في مدراس مدرسة جامعةومركزا ثقافيا في الماضي

---

(١) كثير من الناس يعتقدون ان هذا الحريق كان عن مؤامرة لاتلاف هذا الكنز الثمين .

ولكن توقف نشاطها أخيرا، وهناك مشروع لإحيائها واعادة نشاطها.

وللمسلمين في الجنوب كليات اسلامية كبيرة من أشهرها الكلية الجديدة New College في مدراس والكلية الاسلامية في واينم بادي Vaniyam badi وكلية جمال محمد في ترشنابلي Tiruchira Palli والكلية العثمانية في كرنول Kurnool وكلية فاروق في ملابار تنفق على أكثرها رابطة التعليم الاسلامي بجنوبي الهند.

وقد عني الامراء والأقيال وكبار العلماء باقتناء مكتبات عظيمة وشغفوا بها شغفا عظيما، ومن أغنى مكتبات الهند ودور الكتب واجمعها للكتب النادرة والآثار الثمينة ومخطوطات المؤلفين ونوادر الكتاب مكتبة بانكي بور في بتنه وهي مكتبة المرحوم القاضي خدا بخش خان، ومكتبة إمارة رامبور والمكتبة الآصفية في حيدر آباد، ومكتبة السرى الفاضل الشيخ حبيب الرحمن الشيرواني رئيس الامور الدينية في حيدر آباد سابقا، في عليكرة، ومكتبة ندوة العلماء في لكهنؤ، ومكتبة دار العلوم ديوبند، ومكتبة جامة عليكرة ومكتبة الشيخ ناصر حسين ابن الشيخ حامد حسين الكنتوري في لكهنؤ.

وقد زارت الهند بعثة أوفدتها الادارة الثقافية لجامعة الدول العربية سنة ١٩٥٢ م لتصوير الكتب النادرة الخطّية الموجودة في مكتبات الهند فزارت عواصم الهند ومكتباتها الكبير وأخذت صور مئات من الكتب النادرة.



المسلمون في الهند شعب ممتاز

إن المسلمين مع امتزاجهم بالعنصر الهندي وتأثرهم الواسع العميق بطبيعة البلاد وشعوبها وثقافتها الذي نوّه به « جوستاف لوبون » في كتابه « حضارة الهند » لايزالون شعبا ممتازا في أخلاقه وطبيعته واتجاهاته ومنهج حياته ، وعاداته التي أصبحت طابعا يتميز به المسلم في كل ناحية من نواحي الهند ، وهي الرابطة التي تربط المسلم في الشرق بأخيه المسلم في الغرب ، والمسلم في الجنوب بالمسلم في الشمال حتى يكون أشبه به من مواطنه الهندوكي الذي يعيش بجواره ويتكلم بلغته .

اذا قُدِّر للقارىء الكريم أن يزور الهند من بلاد بعيدة ويختلط بالشعوب الهندية ويدخل في المجتمع الهندي لاحظ ان هناك شعبين ممتازين وحضارتين ممتازتين ، ومجتمعين ممتازين ، وتجلّى له هذا الامتياز في مختلف نواحي الحياة ، وفي مختلف مظاهر المدنية ، وفي الأخلاق والنزعات .

إذا كنت ضيفا عند صديق لك مسلم ــ وليس من اللازم أن تسبق بينكما معرفة أو تقوم بينكما صداقة ــ فالمسلم أخو المسلم ، والمسلم الغريب ضيف أخيه المسلم المقيم ، قدمت اليك مائدة واسعة فيها أوان كبيرة وصحون واسعة ــ بخلاف الطريقة الهندية القديمة ــ وأرغفة كبيرة ، وكمية من الطعام كبيرة تفضل

عن الضيوف ويجتمع عليها الضيوف وتختلف أيديهم في الصحون إن أحبّوا ذلك فالقلب واسع ، والبيت واسع ، والمائدة واسعة ، وتجرّب ذلك في كل بقعة من بقاع الهند وفي كل أسرة اسلامية ، أللهم إلا إذا انقطعت صلتها عن الحضارة الاسلامية ، وعاشت في المجتمع الهندي القديم واندمجت فيه .

وإذا أراد واحد من المسلمين أن يأكل في القطار أو في غرفة الانتظار لا بد أن يدعوك الى الطعام ويلحّ عليك .

إن هذا الاختلاف بين حضارتين عاشتا في الهند جوارابجوار، وإن هذا الاختلاف في طبائع شعبين هنديين لا يزالان يعيشان في دار، وإن هذه الأناقةالتي تتسم بهاالحضارة الاسلامية في الهند ، ورحابة الصدر واحترام الانسانية الذي يمتاز به المسلمون في الهند استرعى انتباه كثير من الزائرين والرحّالين من خارج الهند، وقد أغرى ذلك بعض الأذكياء والنابهين بدراسة الإسلام وروح الحضارة الاسلامية والاقتناع بالدين الاسلامي الذي خلق في أتباعه هذا التسامحوهذه النظرة الواسعة واحترام الانسان وحبّ الاناقة والنظافةفي كل شيء ورفع مستوى الحضارة ، وكان سببا في إسلام بعضهم وقد حكى العلامة محمد إقبال قصتين طريفتين لبعض أصدقائه الانجليز ننقلهما هنا :

يحكي المستر داؤد آليسن (David Opson) الصحافي الانجليزي الذي كان يصدر من لاهور صحيفة انجليزية مشهورة أسمها (Muslim Out Look) قصة إسلامية يقول فيها :

قدمت من انكلترا وأقمت في بمباي فكان أصدقائي الرجال الذين كانوا يسهمون في الحركات السياسية ولم تكن لي صلة بالاوساط الدينية في بمباي وبدأت أسهم في الحركات السياسية في الهند ، وهنالك قابلت بعض المسلمين وبدأت أتردد إليهم ، ومرة دعاني مسلم وجيه الى تناول الغداء عنده ومدّت مائدة على الطريقة الاسلامية وقدِّمت أطعمة شائعة في الشعب الاسلامي وأعجبت بالأناقة وسلامة ذوق الشعب الإسلامي ولطافته وقلت في نفسي إن شعبا رقت حضارته وكملت آدابه ، وبلغ من سلامة الذوق ولطافة الحس هذا المستوى الرفيع لابد أن يكون على مستوى رفيع في الدين والروحانية ، ويتصف بالنظافة والاناقة في كل شيء وهكذا أقبلت على دراسة الاسلام وحياة المسلمين وتبيَّن لي أن الاسلام على قمَّة من العلوّ والظرافة ، بعيد في كل شيء عن السخافة والسماجة والإسفاف ، وتتجلى هذه الاناقة والرقة والسموّ في حضارته وفي طعامه ولباسه كما تتجلى في عباداته وفي أعماله وأخلاقه ، وكل مَن يدين بالاسلام ويدخل فيه يعلو عن المستوى الذي قد عاش فيه .

والقصة الثانية قصة عالم انجليزي قدم الى الهند ليضع كتابا عن الحياة في قرى الهند ودعاه الاختلاف الذي شاهده في سلوك القروي المسلم والقروي الهندوكي ونظرتهما الى الانسان إلى أن يُحَبِّ الاسلام وأهله ثم يدخل في الاسلام ، ولنسمع قصته كما حكاها الدكتور محمد إقبال : يقول العالم الانجليزي :

« كنا نتجول كل صباح ومساء بين المزارع والحقول في قرى الهند ، واتفق لنا أن خرجنا من منزلنا في الصباح وابتعدنا عن محلنا وكان الزمن زمن الحصاد وكان الرجال والنساء منبثّين في الحقول يحصدونها ، وعطشتُ وبحثت عن الماء فلم أجده إلا عند فلاّح وكان الماء في جرّة صغيرة وأشاروا إليّ بأن أجمع كفيّ ، وجعل الفلاح يصبّ من فوق وأنا أكرع كالدابة ورويت وانصرفت ، ولم أمش خطوات إلاّ سمعت هدّة ، والتفتُّ ورائي فاذا بزوج الفلاح قد رمت الجرة على الارض فكان لها صوت ، وقد انفجرت تسبّ زوجها و ..... تؤنّبه تأنيبا شديدا لأنه نجّس الإناء وضيّعه وعجبت من هذا السلوك ومن إهانة الانسان للانسان وأن يعامل أحد بني جنسه معاملة الكلاب .

وعطشت مرة أخرى فكانت التجربة مختلفة عن التجربة الاولى كل الإختلاف ، طلب رفيقي لي الماء من فلاح آخر فاستقبله بالابتسام والترحيب وقدم الي إناءا من خزف وأردت أن أجمع كفي وأكرع كالمرة الاولى فضحك الفلاح ، وقال : لا داعي إلى هذا إشرب هنيئا ، وشربت في حرية ، وانطلقنا وأنا أنتظر أن أسمع هدة كالأولى وانتظرت أن أسمع تأنيبا من امرأة الفلاح كما سمعت أول مرة ولكن شيئا من ذلك يحدث فتعجبتُ لهذا الاختلاف الواضح بن رجلين من طبقة واحدة ومن بلد واحد وسألت عن السبب وقيل لي : إن الفلاح الثاني مسلم لا يعتقد نجاسة الانسان بل يؤمن بكرامته وشرفه ويؤمن بأن الناس كلهم

من آدم وآدم من تراب ، وهكذا علمّه القرآن وعلمّه رسول الانسانية ، ولذلك انتشر الاسلام هذا الانتشار الواسع في القارة الهندية وكان ذلك سبب عنايتي بدراسة الحضارة الاسلامية والدين الاسلامي وسبب اهتدائي للاسلام » .

ومن سمات هذا الشعب الاسلامي الهندي وطبيعته حبه للنبي العربي صلى الله عليه وسلم حبا أصبح له شعارا وسمة وظهر في حياته وأدبه وشعره ، وقد نبغ في الهند أشعر شعراء « النبويات » والمدائح النبوية ـ بعد الجامي والقدسي وبعض شعراء ايران ـ ونظمت فيها أبلغ قصائد ومنظومات وأبيات في المدح النبوي ، ونشأ أدب زاخر قوي ومكتبة عظيمة غنية في الشعر الفارسي والاردي والهندي في مدح النبي صلى الله عليه وسلم ، ووصف حليته وشمائله ونظم سيرته وغزواته فيه كل معجب مطرب ، يثير الحنان ، ويقوّي الايمان ، ويدل على قوة العاطفة الدينية والحب العميق المخلص والشاعرية القوية ، ونبغ في هذا الموضوع شعراء كبار وانقطع بعضهم الى هذا الموضوع ووهبوا له قريحتهم ومواهبهم وحياتهم .

ومما يمتاز به الشب الاسلامي الهندي اتساع أفق فكره وحرصه على الاتصال بالعلم وتمرده على حدود العنصرية والقومية الضيقة ، والوطنية المحدودة ونزعته الدائمة الى العالمية والآفاقية ، وذلك سرّ اندفاعه إلى كل حركة ترمي الى الوحدة الانسانية والجامعة الاسلامية ، ولذلك لم يزل هذا الشعب يعطف على

القضايا الاسلامية ويتبناها ويتألم لها ويثور كأنها قضيته الخاصة ، وقد ظهرت هذه الحماسة وهذا العطف في أروع مظاهره زمن حركة الخلافة ، وقد اكتتب لها الشعب بسخاء وأريحية وحماسة لم تعرف في قضية أخرى ، وهكذا ظهر منه في حرب طرابلس وبلقان ، من الاهتمام بأمر المسلمين والتألم بما نابه ما يدل على قوة الايمان بالجامعة الاسلامية ، وقد اهتم بقضية فلسطين وعقد عدة مؤتمرات لهذه القضية في عواصم الهند وشاركت الصحف في القضية وذلك سرّ عدم انجراف هذا الشعب في سبيل الحركة القومية الهندية انجرافا يفقده شخصيته ويقطع صلته عن العالم الاسلامي ويحمله على تقديسها والغلو في تمجيدها .

ومن خصائص هذا الشعب الاسلامي الهندي شدة تعلق قلوب أفراده بمهد الاسلام ومنزل الوحي ومدينة الرسول صلى الله عليه وسلم والحنين الى مكة والمدينة ، فقد تغنّى بذلك شعراؤهم قديما وحديثا ، وعاش في هذه الأمنية العزيزة اللذيذة العامةُ والخاصةُ حتى عرف ذلك عنهم ، وعيّرهم بذلك غلاة الوطنية والقومية وحقدوا على هذه العاطفة الدينية القوية التي تربطهم بالخارج ربطا روحيا فهي تنافي في زعمهم الاخلاص للوطنية والحماسة القومية (١) وفي الحقيقة لامنافاة بينهما ، فالانسان يستطيع

(١) يدل على ذلك كلمة لكاتب هندي نشرتها صحيفة هندوكية يقول فيها : « ان المسلمين الهنود يعتبرون انفسهم أمة منفصلة متميزة ولا يزالون يتغنون ببلاد العرب ويحنون اليها ولو استطاعوا لاطلقوا على الهند اسم العرب » .

أن يجمع بين الحب لوطن روحي وجسمي فالجزيـرة العربيـة هي البقعة التي أشرق منها نور الاسلام وأنقذ المسلمين من براثن الجاهلية والوثنية ، وأخرجهم من الظلمات الى النور وهم ينظرون إليها كمنقذ ومرشد ومعقل للاسلام ومركز للثقافة ويحجّون اليها في عدد كبير كل عام .

ولا يزال هذا الشعب ممتازا في كثير من أخلاقه وعـاداته وخصائصه رغم انحطاط عظيـم أصيب به هذا الشعب تبعـا للاوضاع السياسية والاقتصادية والثقافية ورغـم تطور عظيم حدث في الحضارة والقيم الخلقية ، فلا يزال ممتازا ـ في أكثـر الاحوال ـ في الكفاية الادارية وسرعة القضاء وقوة التنفيـذ ، ولا يزال كثير من أفراده يشغلون مناصب خطـيرة ومراكز ذات قيمة وأهمية ، ويمتازون بالامانة ومجانبة الرذائل الخلقية ، لذلك يتمتعون بثقة الحكومات وتوسد إليهم أمور ذات بال وقضايـا ومراكز تقتضي الامانة الفائقة والاستقامة الظاهرة والـذكاء النادر .



الدّور الذي قام به المسلمون في تحرير الهند

كان مركز المسلمين القائد في حركة تحرير الهنـد واجلاء الانجليز ــ وقد كان ذلك طبيعيا ــ لانهم هم ولاة البلادوسادتها حين احتل الانجليز هذه البلاد وبدأ الاخطبوط الانجليزي ينفث سمومه ، ويبتلع هذه البلاد قطعة قطعة وإمارة إمارة ، وأول من انتبه لهذا الخطر الملك الهمام الشهم الغيور فتح علي خان المشهور بالسلطان تيبو (١٢١٣ هـ ــ ١٧٩٩ م) الذي عرف ببعد نظره وألمعيته أنّ الانجليز سيزدردون هذه البلاد كلقمة سائغة ، إذا لم تقم في وجههم قوة منظمة ، فحارب الانجليز بكل ما كان يملكه من قوة حربية وعدّة وعتاد ، وحرّض أمراء الهند وأقيالها على القضاء على هذه الجرثومة الانجليزية السامّة ، وحاول الاتصال بالسلطان سليم العثماني والملوك المسلمين وامراء الهند ، وراسلهم وظل يحارب الانجليز حربا عنيفة لاهوادة فيها ، وكاد ينهار كل ما بناه الانجليز وأمّلوه في الهند لولا أنهم نجحوا في ضم أمراء الهند ، في جنوب الهند الى معسكرهم ، وسقط الملك المجاهد صريعا في المعركة ، (في اليوم الرابع من مايو سنة ١٧٩٩ م) وفضّل الموت في المعترك على الاسر في يد الانجليز والحياة في ظلّهم وتحت رحمتهم وقال كلمته الخالدة المأثورة في التـاريخ : « يوم من حياة الاسد خير من مائة سنة من حياة ابن آوى » ولما

بلغ القائد Horse شهادة السلطان ،حضر ووقف على جثته وقال :
« اليوم الهند لنا » .

ولم تعرف الهند ــ في تاريخها الطويل ــ قائدا أعلى همة ، وأبعد نظرا ، وأشد غيرة على الدين والوطن ، وأعظم عداء وبغضا للمحتل الاجنبي من « تيبو سلطان » ولم تكن في الهند شخصية أبغض الى الانجليز وأثقل عليهم من تيبو ، حتى ظلوا زمنا طويلا ــ وقد أدركنا ذلك العصر ــ يسمّون كلابهم باسمه شفاءا لقلوبهم وإهانة لرمز الوطنية والجهاد [1] .

وثارت الجنود الانجليزية في مايوسنة ١٨٥٧ م بعدما جرب الهنديون الحكم الانجليزي وغطرسة الانجليز ، واتتهابهم لثروة البلاد وقلة احتفالهم بالعاطفة الدينية وكرامة أهل البلاد،وانتشرت الثورة في الهند انتشار النار في الهشيم ، فكانت ثورة شعبية عامة ساهم فيها المسلمون والهنادك سواءا بسواء ، وتوجه الثوار الى دهلي مقرّ الملك المغولي الاخير سراج الدين بهادرشاه [1] ، وجعلوه قائدا للثورة ورمزا للوطنية الموحدة والكفاح الشعبي ونادوا به ملكا للهند شرعيا ، وخليفة آبائه ملوك الهند الصناديد

---

(١) كتب الزعيم غاندي مقاله في صحيفة « الهند الفتاة » Young India مقالا أشاد فيه بعظمة السلطان ووطنيته وتسامحه وقال : لا نعرف أعظم منه في شهداء الوطن والامة » .

(٢) كان حكمه محدودا في القلعة الحمراء والانجليز يحكمون البلاد باسمه ونيابة عنه .

المغول الأباطرة ، وقاتل الثوار في كل بقعة من بقاع الهند تحت رايته وباسمه ، ينظرون اليه كزعيم للجهاد الديني والــوطني ، وينظرون إلى دهلي كعاصمة الحكومة الهندية الدائمة ولم يشذّ عن ذلك شاذ [١] .

وبالرغم من أن هذه الثورة أو حرب التحرير ــ كما يصح أن تسمى ــ كانت شعبية عامة يقاتل فيها المسلمون والهنادك جنبا بجنب ، ولم تعرف الهند حماسة وطنية ووحدة شعبية قبل هذه ، كان للمسلمين السهم الاكبر في القيادة والتوجيه وكان منهم العدد الأكبر والأهم من القادة والزعماء [٢] .

ولما أخفقت هذه الثورة ــ لأسباب شرحت في الكتب التي ألّفت في هذا الموضوع ــ صبّ الانجليز على أهل الهند جام

---

(١) الا السيخ ــ مع الاسف ــ وبعض الامراء الذين قمع الانجليز بهم الثورة .

(٢) كان أكثرهم من العلماء والمشائخ ، أشهرهم مولانا أحمد الله ومولانا لياقت علي وهما اللذان قادوا الحركة ، وكان الجنرال نجت خان القائد العام ونائب الملك ، وكان للحاج امداد الله التهانوي ، ومولانا محمد قاسم النانوتوي ، ومولانا رشيد أحمد الكنكوهي ، والحافظ محمد ضامن الشهيد ، وغيرهم من العلماء والمشائخ سهم فيها وخاضوا في بعض المعارك ، وقد ذكر الكاتب الهندوسي المعروف سندرلال عددا من كبار المساهمين في هذه الثورة المسلمين منهم خان بهادرخان ، بير علي ، علي كريم .

غضبهم وانتقموا منهم انتقاما شديدا[1] وبطشوا بالهنديين ـ شعبا وأمة ـ بطشة جبار لا يعرف الرحمة ولا يعرف العدل ولا يعرف الانسانية ولا يعرف الحدود ، وكانت مجزرة هائلة جدّدت ذكرى مذابح جنكيز وهولاكو ، وقد قتلوا ثلاثة من أبناء الملك الشبان المأسورين بعدما أعطوهم الامان والعهد والميثاق بهمجية وقساوة امتعض منها كثير من الانجليز وشنقوا ثلاثة وعشرين من أبناء الاسرة الملكية فيهم مرضى وزمنى وشيوخ عجز[2] وأهانوا الملك وحاكموه محاكمة مهينة ذليلة ، وكانوا حريصين على قتله أشنع قتلة إلاّ أن ضابطا منهم كان قد وعد أن يحافظ على حياته ، ليسلم نفسه اليه فحكموا عليه بالنفي المؤبد الى « رنجون » حيث مات طريدا وشريدا مقترا عليه في الرزق مضيقا عليه .

ودخلت الجيوش الانجليزية في دهلي فكان تفسيرا لقوله تعالى ، « ان الملوك اذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها

---

(١) وقع من الثوار ـ المسلمين وغير المسلمين ـ الاعتداء على النفوس البريئة والضعيفة والنساء والاطفال من الانجليز في بعض المناسبات ، وتخطوا حدود الدين والاخلاق والمروءة في شدة ثورتهم ولعدم النظام ولكن ما وقع من الانجليز مقابل ذلك لا يعلل الا بالجنون والهمجية والضراوة بالدم الانساني : ولا يليق بأمة مثقفة تتزعم العلم والمدنية .

(٢) الاستاذ ذكاء الله في « عروج سلطنت انكلشية » ج ٣ ص ٧٠٨ .

أذله » وقد أذن للجيوش في نهب العاصمة ثلاثة أيام فطبقته تطبيقا فظيعا ، وقد كتب « جون لورنس » الحاكم الانجليزي المشهور في ديسمبر ١٨٥٧ إلى القائد الانجليزي :

(١) « أعتقد أن الطريقة التي انتهبنا بها جميع الطبقات من غير تمييز بينها ستصب علينا السخط العام وستصب علينا اللعنات إلى الأبد واننا نستحق ذلك » [١]

وقامت سوق القتل والنهب في دهلي على قدم وساق ، والدماء تسفك والرقاب تضرب ، والرصاص يطلق من غير تمييز ، والبيوت تنهب ، وقد خرج كل من استطاع أن ينجو بنفسه وأهله وعرضه ، حتى أصبحت المدينة التي كانت عروس البلاد وعاصمة الهند مقفرة موحشة ليس فيها الا البيوت الخاوية ، والانقاض المتراكمة ، والجثث المتعفنة ، أو الجنود المفترسة ، وإليك تصوير البلد من قلم قائد قواد الجيوش الانجليزية (Lord Roberts) وقد كان مسافرا بجيشه من دهلي إلى كانبور يقمع الثورة وكان ذلك في اليوم الرابع والعشرين من سبتمبر ١٨٥٧ م بعدما استولى الجنود الانجليز على دهلي وتملكوا القلعة الحمراء [٢] يقول روبرتس في كتابه « إحدى وأربعون سنة في الهند » :

(٢) « كان المسير من دهلي في نور الصباح الباكر وكان

---

(١) Basworth Smith Life of Lord Lawrence V. 2. P. 158

(٢) القلعة الحمراء بناها الامبراطور شاهجان ، وكانت مركز الحكومة المغولية ، وكان فيها في العهد الاخير بهادرشاه .

منظرا هائلا خرجنا من القلعة من بابها الذي يسمى باب لاهور ، ومررنا بالشارع الكبير الذي هو مركز البلد وأكبر أسواقها « جاندني جون » لقد كانت دهلي في الحقيقة مدينة الاموات ليس بها داع ولا مجيب ، فلا صوت إلا صوت سنابك الخيل ولم يقع بصرنا على عرق ينبض أو عين تطرف ، لم تكن هنالك إلا جثث هامدة مبعثرة هنا وهناك ، وقد كانت هذه الجثث في أوضاع مختلفة خلّفها صراع الحياة والموت في أدوار مختلفة من التفكّك ، وكنا لا تتكلم إلا همسا حتى لا نزعج هؤلاء الاشقياء الذين كانوا مستغرقين في نومة الموت ، إن مارأيناه من المناظر كانت هائلة مفزعة وكانت مؤسفة محزنة ، وقد كانت بعض الجثث ينتهشها كلب ، وكان عند بعضها نسر يرفرف جناحه ويحاول أن يطير فلا يستطيع بفرط الشبع والثقل ، وقد كان بعض الاموات يتراؤن أحياء فقد رفع بعضهم يده في الاحتضار فبقيت مرفوعة كأنه يشير الى جانب ، لقد كان منظرا مهيبا موحشا لا يمكن تصويره وكأن خيلنا قد استولى عليها الذعر فكانت تجفل وتنتفخ مناخرها ،وقد كان المحيط كله مروعا ولا يمكن تصوره ، وقد كان تعفّن بروائح مضرة تولد الامراض » [1] .

لقد كانت المجزرة شعبية وطنية عامة ، ولكن كان المسلمون بصفة خاصة هدف هذه الاهانات والفتك الذريع لأن كثيرا من

---

(1) Lord Reberts Forty one Years in India . P . 142

الانجليز المسئولين كانوا يعتقدون أنها ثـورة إسلامية ، وأن المسلمين هم مصدر الثورة وأصحاب فكرتها وهم الذين تولوا كبرها ، يقول كاتب انجليزي Henry Mead.

(٣) « إن هذه الثورة لا يصح في المرحلة الحاضرة أن تسمى ثورة الجنود لقد انفجرت الثورة منهم ولكن سرعان ما تجلت حقيقتها وظهر أنها ثورة إسلامية » .

ولذلك كانوا يخصون المسلمين بالقتل والبطش ، يقـول مؤرخ معاصر :

(٤) « قد كان شعار بعض رؤساء الانجليز أنهـم كانوا يعتبرون كل مسلم ثائروكانوا يسألون الرجل أنت هندوكي أو مسلم ؟ فاذا قال مسلم قتله بالرصاص »[١] .

ويقول :

(٥) « إن هؤلاء الانجليز كلما رأوا مسلما عليه مسحة من جمال أو له جسم قوي اقتنصوه وشفوا قلوبهم بقتله ، وقد قتل عدد كبير من الوجهاء والاشراف وأصحاب البيوتات الذين بقوا في البلد ، كانوا يقتلون الابناء الشبان أمام آبائهم الشيـوخ ، ويقولون للوالد العجوز أنج بنفسك ، وقلما أفلت من أيديهم مسلم جميل الوجه صاحب حسب ووجاهة حتى أثر ذلك فـي النسل ، وأصبح لا يولد في دهلي مولود فيه الوسامة والجمال

---

(١) الاستاذ ذكاء الله الدهلوي ، عروج سلطنت « انكلشيه » ص ٧١٢ .

فاذا قارن أحد بين المسلمين قبل الثورة والمسلمين بعدها رأى فرقا واسعا بين الجيلين في الجمال والوسامة [1] .

ثم جاء دور الشنق ، ونصبت مشانق وأعواد على الطرق العامة والشوارع وأصبحت مواضع نزهة عامة يتفرج عليها الانجليز ويتمتعون بمناظر احتضار المشنوقين وهم يدخنون ويتحدثون ، فاذا تم عمل الشنق ولفظ المشنوق نفسه الاخير استقبلوه بالضحك والابتسام ، وفي هؤلاء الاشقياء أصحاب الإمارات وكبار الأشراف ، وقد شنق بعض الاحياء الاسلامية على بكرة أبيها ، ويذكر مؤرخ معاصر :

(٦) إن سبعة وعشرين ألفا من المسلمين قتلوا شنقا ، واستمرت المجزرة سبعة أيام متواليات لا يحصى من قتل فيها ، أما السلالة التيمورية فقد حاول الانجليز أن يستأصلوا شأفتها فقتلوا حتى الصبيان وعاملوا النساء معاملة همجية تقشعر منها الجلود » [2] .

يقول ميلي سن :

(٧) « إن ضباط جيوشنا كانوا يقتلون المجرمين من كل نوع وكانوا يشنقون من غير رحمة وألم كأنهم كلاب أو بنات آوى أو

---

(١) الاستاذ ذكاءالله الدهلوي « عروج سلطنت انكلشيه » ص ٧١٢ .

(٢) السيد كمال الدين حيدر في « قيصر التواريخ » المجلد الثاني ص ٤٥٤ .

حشرات خسيسة [1] .

ويقول قائد قواد الجيوش الانكليزية « Lord Roberts »
في رسالة كتبها إلى أمّه في ٢١ يونيو سنة ١٨٥٧ م :

(٨) « إن أهول طريقة للاعدام هو أن يرمى المجرم بالمدفعة، إنه حقا منظر هائل ولكن لا نستطيع في هذا الوقت أن نأخذ بالإحتياط ، إن هدفنا أن نثبت للمسلمين الاشرار أن الانجليز لا يزالون ـ بنصر الله ـ سادة الهند [2] .

وهكذا دفع المسلمون أبهظ ثمن وأغلاه لهذا الجهاد ، وظلّ قادة الفكر والسياسة وأقطاب الحكومة من الانجليز يعتقدون أن المسلمين هم المسئولون عن ثورة ١٨٥٧ م لا يتخلّون عن تبعاتها جيلا بعد جيل وقد كتب هنري هملتن تامس، Henry Hamilton Thomas أحد كبار الموظفين الانكليز في بنغال في كتابه « ثورة الهند الماضية وسياستنا المستقبلة Late Ribellion in Indid & our Future Policy الذي ألّفه في سنة ١٨٥٨ م يعني بعد الثورة بسنة فقط ، والكلمة تشرح عقيدة الانجليز ووجهة نظرهم عن المسلمين بعد الثورة يقول :

(٩) « لقد قدّمت أنّ الهنادك لم يكونوا أصحاب الفكرة في ثورة ١٨٥٧ م ولم يكونوا مصدرها ، وسأثبت في هذه المناسبة

---

(١) ميلي سن ، ج ٣ ص ١٧٧ ،

(٢) تامس ، ص ٤٠ .

أن الثورة كانت نتيجة مؤامرة المسلمين ، إن الهنادك إذا تركت لهم الحرية وكانوا محدودين في وسائلهم لم يكونوا ليساهموا في مثل هذه الثورة وما كانوا يودّونها ، إن المسلمين لم يزالوا ولا يزالون منذ عهد الخليفة الاول مستكبرين غير متسامحين ، وظالمين ، لم يزل هدفهم الدائم أن تقوم الحكومة الاسلامية بأي وسيلة كانت وأن ينشأ الناس على كراهة المسيحيين ، إن المسلمين لا يستطيعون أن يكونوا رعية وفية لحكومة تدين بغير دين الاسلام لان ذلك مستحيل في ظل أحكام القرآن » .

وقد كانت هذه هي السياسة المتبوعة في الحكومة الانجليزية القائمة وهي القاعدة التي يسير عليها موظفوها الكبار ، ورؤساء المصالح ، إقصاء المسلمين عن المراكز الكبيرة في الحكم والادارة ، وصدّ أبواب الرزق الشريف عليهم ، ومصادرة الاوقاف والاملاك التي تدرّ على مدارسهم ومؤسساتهم ، وتأسيس مدارس ونظام تعليمي لا ينشط المسلمون للافادة منه [1] ، وقد كان يعلن في بعض بلاغات رسمية أن الوظائف الفلانية لا يقبل فيها إلا الهنادك [2] يقول هنتر :

« إن المسلمين وإن كانوا يملكون المؤهلات والكفاءة المطلوبة لوظيفة ، ولكنهم يمنعون عن ذلك ببلاغ رسمي » [3] .

---

(١) اقرأ تفصيل ذلك في كتاب ، و . و - هنتر «مسلموالهند» .
W. W. Hunter . Iudian Mussalmans .

(٢) « مسلمو الهند » للدكتور هنتر ص ١٥٨ .

(٣) « مسلمو الهند » للدكتور هنتر ص ١٥٨ .

وقد كان غضب الانجليز شديدا واضحا في قضايا المسلمين كلها ، فكانوا يؤخذون بأقل تهمة وأبعد وشاية ، وكانوا يؤخذون بالظنَّة ويعاقبون أشدَّ العقاب ، وقد حارب الانجليز فلَّ المجاهدين المعتصم في الجبال في حدود الهند الشمالية الغربية حربا شعواء ، وأنفقوا في ذلك نفقات باهظة وتحملو خسائر عظيمة ، وحاكموا في الهند كل من ظنوا به أقل اتصال بهذه الجماعة ـ جماعة السيد الامام أحمد الشهيد ـ حاكموا جماعة من العلماء الأجلاء والمثقفين والوجهاء والتجار في « تبنه » و « تهانيسر » و « لاهور » سنة ١٢٨١ هـ ـ ١٨٦٤ م محاكمة ظهر فيها حقد الانجليز وتوترهم من المسلمين بصفة عامة ، ومن هؤلاء الذين سمَّاهم الانجليز وأعوانهم « وهابيين » بصفة خاصة وحكموا على مولانا يحيى علي ومحمد جعفر التهانيسري ومحمد شفيع اللاهوري بالاعدام وقال القاضي في حكمه : « سأكون مسرورا وسعيدا إذا رأيتكم معلقين على المشانق تلاقون جزاءكم » وكان الانجليز ونساؤهم يأتون الى السجن ليمتعون نفوسهم ويقروا عيونهم بالكآبة التي تغشى هؤلاء « الأشقياء » الذين تنتظرهم المشنقة ، وبجزعهم وهلعهم ، ولما رأوا أنهم جذلون مسرورون ينتظرون الشهادة في سبيل الله بقلوب تواقة مؤمنة ، ونفوس راضية مطمئنة ، كبر ذلك عليهم ، وجاء الحاكم الانجليزي وقرأ حكم المحكمة النهائية بتبديل الاعدام بالنفي المؤبد الى

جزائر « سيلان » قائلا إنه لا يجب أن يسرهم ويحقق أمنيتهم ويكرمهم بالشهادة التي يعدونها أكبر كرامة ، وبهذا الطريق الغريب العاطفي الذي لم يعرف عن أمة دستورية كالانجليز سُفِّر الشيخ يحيى علي العظيم آبادي وشقيقه الشيخ أحمد الله العظيم آبادي والشيخ عبد الرحيم الصادقبوري ، والشيخ محمد جعفر التهانيسري الى « بورت اندمان » سنة ١٨٦٥ م ومات الشيخ يحيى علي والشيخ أحمد الله في « اندمان » ورجع الشيخ عبد الرحيم والشيخ محمد جعفر بعد ثماني عشرة سنة بعد الحياة الطويلة في الجلاء والبلاء ، وصودرت أملاك أسرة صادقبور الواسعة في « بتنة » عاصمة ولاية « بهار » وهدمت مبانيها الضخمة ومشت فيها السكّة وبنيت على أنقاضها مباني البلدية ودوائر الحكومة، ونسفت مقابرهم ودرست ، كل ذلك انتقاما من الأعداء وشفاءا للغيظ (١) .

وكذلك نفي الى « اندمان » جماعة من العلماء الأجلاء كالعلامة فضل حق الخير آبادي ، والمفتي عنايت أحمد الكاكوري والمفتي مظهر كريم الدريابادي ، ومات العلامة فضل حق في المنفى ورجع العالمان الاخران بعدما مكثا مدة طويلة في الجلاء .

ان هذه المعاملة القاسية الشاذة استمرت مدة طويلة كانت سببا لتخلف المسلمين في الثقافة والعلم ، ومنعتهم عن أن ينالوا

---

(١) اقرأ القصة بطولها في مقالتنا « من الشنق الى النفي » القراءة الراشدة الجزء الثالث .

قسطهم في الادارة ومصالح الحكومة • وقد شغلهم الدفاع عن أنفسهم ونفي التهم التي كانت توجه اليهم بين حين وآخر عن المساهمة في سياسة البلاد ومجاراة الشعوب الاخرى التي كانت تتقدم بخطى واسعة وتنال من الحكومة كل تشجيع وعطف في الوعي القومي والشعور الوطني •

قام المؤتمر الوطني العام سنة ١٨٨٤ م وحضره عدد مشرف من وجهاء المسلمين والرجال المثقفين ، وقد رأس حفلته السنوية الرابعة التي انعقدت سنة ١٨٨٧ م في « مدراس » الاستاذ « بدر الدين طيب جي » وحضره الوجيه الفاضل « ميرهمايون جاه » وتبرع للمؤتمر بخمسة آلاف روبية ، وحضره لفيف من الوجهاء والاغنياء من المسلمين والمحامين والتجار •

وكان زعيم الحركة التعليمية الاسلامية « سرسيد أحمد خان » (مؤسس الجامعة الاسلامية في عليكره) من دعاة الاتحاد الوطني ، إلا أنه بعد فترة قصيرة اتبع سياسة الانفصال عن المؤتمر بدافع الاشفاق على المسلمين الذين كانوا لا يزالون ضعفاء في الثقافة والوعي السياسي ومتخلفين في الحياة والاقتصاد والتعليم وحذّر المسلمين عن الوقوع في نفوذ الهنادك المتحمسين ، والبنغاليين المتطرّفين ، الذين بدأوا ينتقدون السياسة الانجليزية ويطالبون بحقوقهم وأشار عليهم بتكوين جبهة اسلامية والابتعاد عن « السياسة » التي قدتثير عليهم الاحقاد القديمة وتخلق

المشكلات الجديدة [1] .

إلا أن عددا كبيرا من مفكري المسلمين الاحرار وفي مقدمتهم علماء الدين كانوا يرون تأييد المؤتمر ويرون المساهمة في الحركات السياسة الوطنية ولا يعتقدون أن السياسة هي الشجرة الممنوعة للمسلمين ، فأصدر الشيخ عبد القادر اللدهيانوي مجموعة فتاوى سماها « نصرة الابرار » في تأييد المؤتمر الوطني سنة ١٨٨٧ م كان من الموقعين عليها كبار العلماء في حواضر الهند المشهورة وفي المدينة المنورة وبغداد ومنهم العالم الرباني الجليل مولانا رشيد أحمد الكنكوهي والاستاذ الكبير مولانا لطف الله العليكرهي .

وحضر حفلة المؤتمر السنوية الخامسة التي انعقدت في إله آباد عام ١٨٨٨ م بعض كبار العلماء ، وهكذا ظلّ المسلمون يساهمون في نشاط المؤتمر ويشاركون مواطنيهم في هذه المؤسسة الوطنية الكبيرة .

وفي سنة ١٩١٢ م نشبت حرب بلقان وانطلقت موجة عنيفة من السخط العام على الحكومات الاوربية وزعيمتها الحكومة البريطانية وحلفائها وانفجر الوعي السياسي الاسلامي الشرقي

---

(١) لا شك أن هذه السياسة وهذا الاسلوب للتفكير كان خاطئا وكان نتيجة تأثير الداهية الانجليزي المستربيك وخليفته المستر موريس الذين ظلا يقودان عقلية المسلمين وسياستهم مدة طويلة ، وقد جنى هذا الاعتزال عن السياسة على كيان المسلمين وحياتهم القومية .

وصدرت صحيفة « الهلال » الاسبوعية التي كان ينشئها مولانا أبو الكلام آزاد ، وكانت تنشر مقالات تكتب بقلم من نار وتنتقد السياسة الاوربية الصليبية في قوة وبلاغة لا يعرف لها نظير ويتهافت على قراءتها آلاف مؤلفة من المسلمين الوطنيين ، وصدرت مجلة « كومريد » (Comrade) الانجليزية التي كان ينشئها مولانا محمد علي [1] من كلكتا ، ثم انتقلت الى دهلي وينتقد فيها السياسة الانجليزية في أسلوب أدبي ساخر ، وكذلك جريدة « زميندار » لصاحبها مولانا ظفر علي خان وصحف إسلامية أخرى ، وبذلك التهبت نار الثورة الفكرية في الهند ، واعتقلت الحكومة زعماء المسلمين ، محمد علي ، وشوكت علي ، وأبو الكلام آزاد ، وحسرت موهاني .

وكان رئيس مدرسة دار العلوم ديوبند مولانا محمود حسن (الذي اشتهر بعد بلقب شيخ الهند) من كبار الحاقدين على الحكومة الانجليزية ولا نعرف أحدا بعد السلطان تيبو من يبلغ مبلغه في عداء الانجليز والاهتمام بأمرهم ، ومن كبار أنصار الدولة العثمانية التي كانت زعيمة العالم الاسلامي ، وحاملة لواء الخلافة ، وكان من كبار الدعاة الى استقلال الهند ، وتأسيس الحكومة الوطنية الحرّة ، وكان من الذين ملكتهم هذه القضية وتفانى فيها ، وحاول الاتصال بحكومة أفغانستان ورجال الدولة

---

(١) الزعيم مولانا محمد علي زعيم حركة الخلافة دفين القدس .

العثمانية كأنور باشا وغيره وقد أسرته [1] حكومة الشريف حسين سنة ١٩١٦ م في المدينة المنورة وسلمته الى الحكومة الانجليزية التي نفته وزملاءه وتلاميذه (مولانا حسين أحمد المدني ، ومولانا عزيز كل والحكيم نصرت حسين والاستاذ وحيد أحمد) الى جزيرة مالطا سنة ١٣٣٥ هـ ـ ١٩١٧ م مكثوا هنالك الى سنة ١٣٣٨ هـ ـ ١٩٢٠ م ، وكان مولانا عبد الباري الفرنجي محلي مؤسس جمعية العلماء من كبار المتحمسين للقضية الوطنية ومن كبار قادة حركة الخلافة .

وفي سنة ١٩١٨ م صدر تقرير رولت (Rowlatt Report) وهوجم فيه المسلمون بصفة خاصة مهاجمة عنيفة ، واتهموا بالثورة ، وكان رد الفعل عنيفا ضد هذا التقرير في طول الهند وعرضها .

وفي سنة ١٩١٩ م أطلق سراح محمد علي وشوكت علي وتجلى اتحاد المسلمين والهنادك في أروع مظاهرة ، واتحدوا في مهاجمة الحكومة الانجليزية وسياسة حلفائها في قضية الحكومة العثمانية ، والنداء الى تحرير الوطن وتأسيس الحكومة الاستقلالية ،

---

(١) وأخذ فعلا رسائل من أنور باشا وجمال باشا في تأييد قضية الهند وكفاحها ضد الانجليز وحث الرعايا التركية على مساعدة مولانا محمود حسن وقد دسها أصحاب الشيخ في جوف ألواح صندوق خشبي وملأه بقماش الحرير وأرسله الى الهند حيث وصل الى اصحابه ، ومن هنا اشتهرت القصة بالرسائل الحريرية وذكرها Rowlatt في تقريره المشهور .

وأصبحت الهند كمرجل ثائر يغلي حماسة وثورة ●

واشترك في هذه الحركة (التي كانت ترمي في النهاية الى تكوين الوعي السياسي والحماسة الوطنية وكراهة الانجليز) غاندي بكل نشاط وحماسة وقام برحلات طويلة مع محمد علي وشوكت علي كان يخاطب فيها الجمهور ويخطب في الحفلات الكبيرة التي لم تشهد البلاد مثلها ، ولا أعتقد أنها ستشهد مثلها ، وكان الجمهور يستقبل هؤلاء الزعماء بحماسة منقطعة النظير ويهتف بحياتهم ●

وفي سنة ١٩٢٠ م اقترح غاندي ومولانا أبو الكلام آزاد ـ الذي كان من كبار زعماء الخلافة وحركة التحرير واحد قادة الفكر في الهند ـ مقاطعة البضائع الاجنبية ومقاطعة الحكومة الانجليزية والاضراب عن التعاون معها في دوائرها وفي جيوشها فكان أمضى سلاح استعمل في حرب التحرير والكفاح الوطني في أيّ بلد حسبت له الحكومة الانجليزية كل حساب وكاد يشل الجهاز الاداري وينشر الثورة العامة ●

وكان كل ذلك ينذر بانتهاء الحكومة الانجليزية ويحرج جهاز الحكومة البريطانية في هذه البلاد البعيدة إلا أن السياسة الانجليزية أطلقت سهمها الاخير الذي لا يطيش عادة في البلاد الشرقية وهو سهم التفريق والإفساد ، أقنع الحاكم العام ورجال الحكومة أحد الزعماء الوطنيين الهنادك بضرورة الدعوة الى الديانة الهندوكية وارجاع من دخل من أهل البلاد في الدين

الاسلامي الى دياناتهم القديمة وتنظيم الشعب الهندوكي على أساس ديني قومي حربي ، فقد ظهر تفوق المسلمين وحماستهم وحسن نظامهم في حركة الخلافة والتحرير ، وكانت القيادة السياسية في أيديهم لأن القضية التي كانت تثير الجماهير قضية إسلامية تتصل بمركز الخلافة .

ومن هنا ظهرت الدعوة والتبشير بالديانة البرهمية والآرية وتنظيم الهنادك على طراز حربي ، وانتشر دعاتها في الهند وظهرت إزاء ذلك حركة الدعوة الى الاسلام وتنظيم المسلمين على أساس مستقل ، وبدأت المناظرات الدينية والخطب العاطفية والحماسية وانفجرت الاضطرابات الطائفية في شبه القارة الهندية .

وبقي المؤتمر الوطني يعمل عمله ويعقد حفلاته ، وقد رأس حفلة سنة ١٩٢٣ م الخصوصية في دهلي مولانا أبو الكلام آزاد والحفلة السنوية العامة في نفس السنة في « كوكنادا » مولانا محمد علي .

واستمرت الاضطرابات وعنفت حتى كانت في سنة ١٩٢٧ م في بضعة شهور فقط خمسة وعشرون اضطرابا ، وكانت هذه الاضطرابات حديث النوادي والصحف والشغل الشاغل للبلاد ولم يستطع زعماء المؤتمر وحركة الخلافة أن يوقفوا هذه الاضطرابات ، ويرجعوا المسلمين والهنادك الى الصفاء والثقة التي كانت تسود قبل ذلك ، ولم تزل الفجوة بين الطائفتين

ــ المسلمين والهنادك ــ تتسع وتعمق ، والجفوة بينهما تقوى وتكبر ، والاتجاه الى الانفصال في الزعماء يزداد قوة حتى أصبح واقعا علميا .

وبدأ الناس يشعرون بخمود الحماسة الوطنية أو بضعفها في الزعماء الوطنيين وانحيازهم الى المعسكرات الطائفية وخضوعهم للعواطف الدينية والنعرات الطائفية ، وبدأ الزعماء الوطنيون المسلمون يشعرون بأن الزعماء الوطنيين الهنادك ــ وعلى رأسهم الزعيم غاندي ــ لم يستعملوا كل نفوذهم في وقف هذه الاضطرابات الطائفية وفي محاسبة شعبهم وأصحاب دياناتهم ــ الذين .... يكوِّنون الاكثرية في البلاد ــ فيما يصدر منهم من الاعتداء والسبق ، وإنه لم يظهر من هؤلاء الزعماء من الحياد التام والمساواة بين الطائفتين ما كان ينتظر من زعيم وطني عام .

وسواء كان هذا الشعور صحيحا أو كان فيه شيء من التشاؤم وسوء التفاهم فقد جعل هذا الشعور يضعف نشاط بعض الزعماء الوطنيين المسلمين ــ الذين كانوا مشعل الحماسة الوطنية ، وكانت لهم مواقف خالدة في الدفاع عن الوطن والكفاح ضد الانجليز ، كمولانا محمد علي ــ في تأييد المؤتمر ، وجعلهم ينظرون الى المسلمين كأمتهم التي يأوون اليها ، ويشكون من زعماء المؤتمر ضيق التفكير ، وضيق الصدور فيما يتصل بالمسلمين .

وهكذا انفصل مولانا محمد علي وكثير من زملائه عن المؤتمر

وانضموا الى الجبهة الاسلامية وقويت حركة الانفصال التي كان يتزعمها المستر محمد علي جناح رئيس العصبة الاسلامية (Muslim League) وكسبت إعجاب عدد كبيرمن الجمهور الاسلامي وحماسته حتى نادت في الاخير بتقسيم الهند ونجحت بفضل عقلية الاكثرية الضيقة وشذوذ معاملتها وتفكيرها مع المسلمين (١) .

وبقي مولانا آزاد وكثير من العلماء الذين كانوا ينتسبون الى « جمعية العلماء » أوفياء للمؤتمر ثابتين على موقفهم القديم ووجهة نظرهم ، وعلى رأسهم وفي مقدمتهم العالم الجليل المجاهد مولانا حسين أحمد المدني ، وهو خليفة شيخه مولانا محمود حسن في العداء الشديد للانجليز والحماسة للقضية الوطنية والاخلاص لها والتفاني في سبيلها ، وقد تحمل هو وزملاؤه (٢) أعضاء جمعية العلماء كل سخط واهانة من العنصر الاسلامي

---

(١) جاء في خطبة مولانا أبي الكلام التاريخية الخالدة التي ألقاها في البرلمان الهندي وقد أشار الى بعض أعضاء البرلمان الهنادك الذين اعترضوا على مساعدة وزارة المعارف للمؤسسة العلمية المشهورة « دار المصنفين » في أعظم كره لانها تنسب الى المسلمين « ان هذه العقول الصغيرة هي التي كانت سببا في تقسيم الهند » .

(٢) نذكر منهم بصفة خاصة المفتي الاكبر مولانا كفاية الله ، ومولانا محمد سجاد البهاري ومولانا حفظ الرحمن الامين العام للجمعية وعضو البرلمان الهندي .

المتحمس المندفع تحت قيادة العصبة الاسلامية وكان مركز نشاط عظيم ، ودوّامة لاتسكن ولا تهدأ مع النزاهــة التامة وصرامة لا ضعف فيها ودين لا مغمز فيه .

وكان مولانا أبو الكلام آزاد رئيس المؤتمر الوطني لأطول مدة تمتّع بها رئيس ، وفي أحرج فترة مرت بها البلاد وفي عهــد رئاسته زارت البعثتان الحكوميتان لحلّ القضية الهندية والمفاوضة في شروط الاستقلال ، وتفاصيله فكان مولانا أبو الكلام بصفته رئيسا للمؤتمر الوطني الهندي ممثلا للمؤتمر الوطني ولســان حاله ، وقد اعترف أعضاء البعثات وعلى رأسهم السياسي الانجليزي (Sir Stafford Cripps) بذكائه ولباقته وحنكته السياسية والفطنة للدقائق الدستورية .

وفي عهد رئاسته وتحت اشرافه وتوجيهه نالت الهند الاستقلال ويدل كتابه « الهند تنال الاستقلال » (India Wins Freedom) على أنه كان العقل المفكر الموجه في جهاز المؤتمر الوطني وكــان يسيطر على زملائه وعلى الجهاز الاداري وسياسة البلاد بعقلــه النابغ ونظره البعيد ، وشخصيته القوية ، وله في حركة استقــلال الهند والكفاح الوطني أوفر نصيب يمكن أن يكون لزعيــم وطني[1] .



مشكلات الشعب الإسلامي الهندي

لكل شعب مشكلات تمتحن جدارته للبقاء وتشغل مواهبه وتثير كوامنه وتبعث فيه النشاط واليقظة ، وكل شعب لا مشكلة له لا يصلح للاعتماد والثقة ومعرض لخطر الخمود والاستنامة والاخلاد الى الراحة .

وللشعب الاسلامي الهندي مشكلات يعانيها اليوم ويحاول حلّها والتغلّب عليها ، كان بعضها نتيجة أخطائه وبعضها نتيجة رواسب الماضي ومخلفاته الفكرية والسياسية ، وبعضها نتيجة وضع الاحوال والحوادث التي مرت بها الهند في العهد الماضي ، ولا شك أن جميع هذه المشكلات عارضة طارئة ، ستنحل اذا أثبت الشعب الاسلامي صبره واحتماله وعالج الامور بحكمة وأناة ورفق وقدرت له القيادة الرشيدة المتزنة الجريئة ، ونذكر هنا أهم مشكلاته .

إن المشكلة الكبرى من هذه المشكلات هي مشكلة الدعوة الاسلامية ، يعرف الجميع أن الاسلام دين دعوة وتبشير ، وكان انتشار الاسلام وازدهاره عن طريق الدعوة والهداية ، والعدد الذي دخل في الاسلام في الهند بفضل الدعاة المخلصين من الصوفية والمشائخ والتجار والربانيين أكثر جدا ، من عدد المسلمين الذين نزحوا الى الهند من الاقطار الاسلامية العريقة في الاسلام كجزيرة العرب وايران وتركستان ، ولم تزل الدعوة الاسلامية المخلصة

تضيف الى الجسم الاسلامي دما جديدا قويا في كل عصر ، وتمنح المجتمع الاسلامي في الهند مهتدين جددا أثبتوا نبوغهم وعبقريتهم فيما بعد ، ولم تزل أسر عريقة في الشرف والاصالة معروفة بالذكاء والنجابة تنتقل وتنضم الى الاسرة الاسلامية الكبيرة ، وفي أعلام الشعب الاسلامي الهندي ورجالاته من ينتمي بنسب قريب أو بعيد الى أسرة هندوكية ومن هؤلاء في الماضي القريب مولانا عبيد الله البتيالوي صاحب « تحفة الهند » ومولانا عبيد الله السندي ، والعلامة محمد اقبال ، والشيخ ثناء الله الامرتسري ، ومولانا أحمد علي اللاهوري الذين قليل من المسلمين يعرفون أنهم من أسر دخلت في الاسلام أو كان منهم من شرح الله صدره للاسلام فأسلم بنفسه .

وكانت الدعوة الاسلامية والهداية الاسلامية تعملان عملهما وتشقان طريقهما الى الامام في العهد الاسلامي الاخير والى آخر عهد الحكومة الانجليزية ، وكان عدد كبير من غير المسلمين يدخل في الاسلام طوعا كل سنة لما يمتاز به الدين الاسلامي من المبادىء الحكيمة المعقولة ووجود عقيدة التوحيد النقية والعدل والمساواة وعدم وجود طبقات متفاوتة واللمس المنبوذ ، وكان القرآن والسيرة النبوية وتعاليم الاسلام تفتح قلوبا جديدة وتنير عقولا جديدة ، وكان من الممكن المتوقع أن يصبح الاسلام — لو جرت الامور مجراها الطبيعي — أعظم قوة في القارة الهندية ، ثم أعظم قوة في آسيا .

ونشبت المعركة السياسية بين المسلمين ومواطنيهم وحميت في الايام الاخيرة ، توترت منها قلوب الطائفتين وامتلأت ضغنا وحقدا وشكا ، واتسعت شقة الخلاف وكان من نتيجتها انفصال الطائفتين وانقسام الهند وقيام دولتين مستقلتين احداهما الجمهورية الهندية والاخرى الجمهورية الاسلامية الباكستانية ، ولسنا الآن بصدد الحكم على هذا الوضع ، هل كان من الممكن التفادي عما وقع وهل كان هنالك طريق أفضل ؟ وهل كان عمليا أم لا ؟ هذا كله نتركه للمؤرخ السياسي، والذي يكتب تاريخ الهند بحرية وتفصيل وانصاف ، ولكن الذي يهمنا الآن هو أن هذا الوضع السياسي الذي جرت اليه الأحوال والظروف أو لجأت اليه الهند طائعة أو مكرهة خلف مرارة في القلوب وشكا في قلب كل طائفة للأخرى ، وزهدا وانصرافا عن كل ما تتسم به تلك الطائفة من دين وعقيدة ، وثقافة وحضارة ، بل وكراهة لما تتبناه وتتزعمه بطبيعة الحال ، وكان ذلك حاجزا كبيرا في سبيل انتشار الاسلام في الهند ، لأنه دين الدولة المنافسة القائمة لها بالمرصاد ودين شعب قامت بينه وبين الشعب الهندي معارك سياسية وحروب طائفية ومناوشات كلامية ومناظرات برلمانية لا تزال جديدة في الذاكرة ولا يزال ما يطلع في الصحف اليومية كل صباح من تصرفات باكستان وتحرشاتها يثير الكامن وينكأ الجرح الذي لم يندمل •

أضف إلى ذلك أن الدولة التي تتسمى بالاسلام والمجتمع

الذي يدين بالاسلام على الحدود لا يمثلان مع الأسف في الاخلاق والسياسة ما يزيد ثقتهم بالاسلام ويبعث على إجلاله واكباره ، وزيادة على ذلك أن الاحوال السياسية والاقتصادية في باكستان تبرهن بعض الاحيان عند المتشككين على اخفاق دولة تنتمي وتقوم على أساسه ، وقد يقرأ الانسان في صحيفة أو يفاجأ ما يباعد عن الاسلام فيقوم حجاب بفهم حقيقته ومدى تأثيره في النفوس .

هذه هي مشكلة المشكلات في الهند ولا شك أن امتداد الايام وتحسن العلاقة بين باكستان والهندوتغلب العقل على العاطفة سيحل هذه المشكلة ويبدأ الاسلام سيره ونشاطه من جديد إذا قام المسلمون بدعوة اسلامية رقيقة خالصة مخلصة ، لا تشوبها السياسة والطموح والكبرياء ، دعوة لا تقصد إلا هداية الناس وإسعاد النفوس وخدمة الخلق والنصح الخالص ، والاشفاق على مصير بني آدم وتحفظهم من مهالك الدنيا والآخرة ، ووفق المسلمون لإخراج كتب في شرح تعاليم الاسلام وعرض السيرة النبوية واللغة الهندية واللغات الاقليمية في أرقى أسلوب عصري وشكل جذاب ، وتغلغلوا في المجتمع الهندي بدعوتهم وأثبتوا تفوقهم الروحي والخلقي وإخلاصهم ووفاءهم لبلادهم وحرصهم على تقدمها ورفاهيتها .

والمشكلة الثانية ، التي تلي المشكلة الاولى وقد تفوقها في الخطورة والنتائج لأن المشكلة الاولى انما تقف سدّا في سبيل

انتشار الاسلام وتوسعه حين كانت المشكلة الثانية تتهدد وجود الشعب الملّي وبقاءه في الهند كأمة ذات عقيدة خاصّة وحضارة خاصة وثقافة خاصة ، وهي مشكلة التعليم .

كان دستور الجمهورية الهندية العلماني يكفل حرية العقيدة والديانة والثقافة لكل طائفة ولكل عنصر من عناصر القومية الهندية ويساوي بين العناصر المختلفة والطوائف الهندية ، وهو أفضل دستور لقطر يسكنه شعوب كثيرة ذات ديانات كثيرة وحضارات وثقافات متنوعة ، وكان أفضل نظام من نظم المعارف في مثل هذه البلاد نظام لا يتبنّى ديانة خاصة وعقيدة خاصة ، فاما أن يجمع بين تعاليم أديان مختلفة وينظر اليها بعين واحدة وهذا يصعب تطبيقه في قطر مثل الهندغني بالديانات والحضارات ، وإما يعتزل جميع هذه الديانات والعقائد ولا يتناولها بالعرض ولا يتعرض لها نفيا ولا إيجابا ويبقى مقصورا على الثقافة العامة والمعلومات المدنية وما يحتاج اليه الطالب في حياته من مواد دراسية .

وقد كان المشرعون وواضعوا الدستور الهندي عقلاء بعيدي النظر إذ فضلوا القسم الثاني وذلك كان الوضع السائد والخطة المتبعة في العهد الانجليزي ، هذا مالا يقبل مناقشة ولا يثير اعتراضا ، وكان المسلمون مسرورين إذا كان هو الوضع التعليمي في الجمهورية الهندية وولاياتها المختلفة .

ولكن من المؤسف المقلق أن هذا لم يتجاوز صفحات

الدستور والبلاغات الرسمية ، فقد تبنّى واضعوا المناهج الدراسية ومؤلفوا الكتب المقررة للتدريس في ولايات الجمهورية، خصوصا في الولاية الشمالية ، ديانة الاكثرية وعقيدتها بعرض شعائرها وآلهتها ومقدساتها وأساطيرها الدينية مما يتنافى مع تعاليم الاسلام ويضادّ عقيدة التوحيد البسيطة وما جاء في القرآن من وصف الله تعالى بصفات العظمة والجلال والقدرة والكمال والتفرد والتعالي عن المثال وعدم الحلول والاتحاد ، وينافي عقيدة الرسالة والنبوة الاسلامية ، ويدعو الى تقديس هذه الآلهة الأسطورية وعبادتها وتقديس بعض الانهار والمدن وتأليهها ، ويصور الهند ـ البلاد التي تسكنها الطوائف الكثيرة ـ كبلد ليس فيه ديانة غير الديانة البرهمية ومعابدها واحتفالاتها وأعيادها ، وتقاليدها ومراكزها الدينية والروحية .

والكتب التي قررت للمطالعة ليطالع التلاميذ على تاريخهم الماضي ويتعرفوا بالشخصيات الكبيرة قد اقتصرت على شخصيات شعب خاص وديانة خاصة ، وأعرض مؤلفوها ـ في تصميم وتفكير ـ عن الحديث عن أي شخصية كبيرة من شخصيات العهد الاسلامي الزاهر سواءا كانت من عباد الله الصالحين أو من الملوك العادلين ، أو المشرعين النابغين ، أو الاداريين الحازمين أو العلماء العبقريين أو الشعراء المفلقين ، مع أنها من مفاخر الهند ومن أعلامها التي يتباهى بها الهنديون على اختلاف دياناتهم ويتجمل بها تاريخ الهند العام ، وفيها أسوة وحافز للتلاميذ الصغار

والشباب الناهضين ، وعاملوا العهد الاسلامي ومن نبغ فيه من الرجال وأصحاب الفكر والكمال معاملة الاجانب ومعاملةالغرباء، وإذا ذكروا بعضهم لم يحسنوا تصويرهم [١] أو نسبوا إليهم ما يحط من شأنهم ، بل ونسبوا الى الرسول الاعظم صلى اللهعليه وسلم من الاخلاق والاعمال والحوادث ما لا يليق بانسان شريف فضلا عن الرسل ويجرح شعور كل مسلم ويثيره [٢] .

ان وجود مثل هذه الكتب المقررة في نظام تعليمي إجباري تفرض دراستها على أولاد المسلمين وشبابهم حين لا يتلقون تعليمهم وثقافتهم عن مصدر آخر وتؤسس مئات آلاف من المدارس في المدن والقرى والارياف وضع محرج للمسلمين يبعث فيهم القلق الشديد والاشفاق على مستقبلهم الديني وعقيدة أجيالهم ، ويهدد كيانهم الملّي في هذه البلاد التي يعتبرونها وطنا لهم وقد صمموا على الإقامة والبقاء فيها وخدمتها بكفاياتهم ومواهبهم والمساهمة في نشاطها ، ويجعلهم يخافون على أبنائهم وأفلاذ أكبادهم من الردّة الفكرية والثقافية ، ومن الردّة الدينية ومن الوثنية ، وقد بدت طلائع هذه الردّة في الاوساط التي أثر فيها هذا التعليم وانقطعت صلتها عن مصدر ثقافي أو عن الدعوة الاسلامية ، وبدأ الصغار السذّج من أبناء المسلمين يتظاهرون

---

(١) انظر سلسلة « أسلافنا » المقررة للصف السادس الى الثامن .

(٢) انظر « دمثوا كرانت كي لهرين » .

بالشعائر البرهمية ويدينون ببعض عقائدها .

إنه وضع نعتقد أنه لا يدوم ولا يطول وإن الروح الجمهورية والحرية التي عرفت الهند بالتمسك بها ستقضي على هذا الوضع الشاذ ، وان العقل سيغلب على العاطفة ، وأن العقلاء الاحرار من المسئولين ورجال المعارف سينتبهون لشذوذ هذا الوضع ووخامة عاقبته والتضاد الواقع بين الدستور وبين التطبيق .

ولكنه على كل حال مبعث قلق عظيم واشفاق وحذر في أوساط المسلمين وفي المجتمع الاسلامي فلذلك انعقد مؤتمر عظيم في احدى مديريات الولاية الشمالية (لبستي) حضره عدد كبير من المسلمين من كل مذهب ومدرسة فكرية ، وثلاث مائة ممثل ومندوب من مختلف الطبقات وطلبوا من الحكومة أن تصلح برامج التعليم الرسمي وتسحب هذه الدروس التي تنافي العقيدة الاسلامية وتقوم على أساس ديانة خاصة وفكرتها وأساطيرها ، وتحافظ على علمانية المعارف كما يقررها الدستور ، وعزموا على إنشاء كتاتيب ومدارس تعلم أطفال المسلمين التعليم الديني في أوقات الفراغ ، وإنشاء مدارس تعلم المناهج الدراسية المقبولة في المعارف مع مادة الديانة واضافة دروس تعاليم الاسلام ، وقد كان لهذا المؤتمر تأثير كبير في الوسط الاسلامي ، وانبثّت فروعه في انحاء الولاية ، وانعقدت مؤتمرات عظيمة ، وكانت الفكرة التي يلتقي عليها المسلمون وأفراد الاقلية على اختلاف طبقاتهم ومشاربهم .

ولجمعية العلماء أيضا نشاط في حقل نشر التعليم الاسلامي وتأسيس الكتاتيب والمدارس في المدن والقرى .

المشكلة الثالثة ، هي المشكلة اللغوية ، نشأت لغة أردو باختلاط العناصر المختلفة والاجناس المختلفة من أهل الهند . وكانت مزيج الثقافات المختلفة ووليدة اللغات الاربعة القديمة السنسكرتية ، والعربية والفارسية والتركية ، واقتبست في العهد الأخير من اللغة الانجليزية ، مفردات كانت جارية على ألسنة العامة ، وأصبحت هكذا لغة تمثل القومية الهندية خير تمثيل وأصبحت لغة الجمهور ولغة الثقافة والعلوم والآداب الرفيعة ، والصحافة والسياسة ، وأصبحت أداة التفاهم بين الولايات الهندية والمناطق المختلفة التي لكل منها لغة محلية خاصة ، ويتكلم بها عامة الجمهور في الولايات الشمالية وفي ولاية «بهار» وفي دهلي وما جاورها من المدن وفي ولاية حيدر آباد وهي اللغة الوحيدة التي يفهمها أكثر أهل الهند في كل منطقة وولاية ويصدر فيها صحف ومجلات ، تلي الصحف الانجليزية السيّارة في عدد قرائها والمشتركين فيها .

كانت « أردو » هي اللغة الرسمية (الثانية بعد الانجليزية) التي تستعمل في المحاكم والادارات والمدارس حتى اقتضت سياسة الانجليز في عهد حاكم الولاية الشمالية(Sir Antony Macdonalde) أن يشجعوا اللغة الهندية ويحدثوا تنافسا بين اللغتين الشقيقتين ، ويبذروا بذرة العداء بين الطائفتين ، فقرر

الحاكم المذكور في ١٨ من أبريل عام ١٩٠٠ م قبول اللغة الهندية ، واستعمالها في المحاكم ، فمن ذلك الحين برزت الى الميدان ، واستقلّت الهند وانقسمت سنة ١٩٤٧ م وقرر دستور الجمهورية الهندية كما تقول مادة (٣٤٣) ان اللغة الجمهورية الرسمية هي الهندية في الحروف السنسكريتية [١] وقرّر الدستور أربع عشرة لغة هي لغات المناطق كلغات الهند المعترف بها دستوريا ، وفيها أردو ، وقرّر الدستور أن كل لغة يتكلم بها عدد يعتد به يعترف بها .ويمنح أهلها كل تسهيلات لتعليمها لابنائهم إذا طلبوا ذلك واقتنع رئيس الجمهورية بوجود هذا العدد ورغبته في أن هذه اللغة أداة التعليم لابنائه فتقول مادة (٣٤٧)

« إذا رغب عدد وجيه من أهل ولاية في أن يستعمل لغة يتكلم بها ، وطلب أن تعترف بها حكومة الولاية ، واقتنع رئيس الجمهورية بأن من يطلب ذلك يشكل عددا لا يستهان به ،فللرئيس أن يصدر أمرا بالاعتراف بهذه اللغة رسميًا واستعمالها للمقاصد التي يصرح بها الرئيس» .

ولكنّ الولايات التابعة للمركز وخاصة الولاية الشمالية ــ التي كانت تعتبر مركزا للغة اردو فيها تهذبت ورقت ــ ألغت لغة أردو كمادة دراسية وكأداة التعليم في المرحلة الاعدادية والتحضيرية وقرّرت اللغة الهندية لغة إجبارية وأداة التعليم

(١) كتابة خاصة في حروف خاصة تكتب من الشمال الى اليمين كاللاتينية .

الوحيدة التي يتلقى فيها التلاميذ المواد الدراسية وان كانت لغتهم التي يتكلمون بها ويتكلم بها آباؤهم هي لغة أردو، وطبقت وزارة المعارف في ولاية (يوبي) هذا القرار بدقة وشدة ومنعت دراسة لغة أردو في مدارسها الابتدائية قاطبة ، وهكذا أقصيت لغة أردو من المدارس الابتدائية إقصاءا تاما .

إن الغاء لغة أردو كمادة دراسية في المدارس وكأداة التعليم كان مؤثرا في ثقافة جميع العناصر والطوائف التي تتكلم بها وفي مستقبلها المنوط باللغة ، ولذلك أثار موقف الحكومة المعادي إزاء هذه اللغة سخطها واعتراضها ، ولكن تأثيره في ثقافة المسلمين ومستقبلهم كان أعظم وأعمق .

وكان هذا التأثير يتجاوز الثقافة الى العقيدة والمستقبل الديني لأن أردو هي الوسيلة الوحيدة التي تربطهم بالثقافة الاسلامية ففيها المكتبة الدينية وحروفها عربية فتسهل بها قراءة القرآن ودراسة اللغة العربية لمن يرغب في هذه الدراسة ، وفيها آدابهم وحضارتهم ، وتاريخهم ، ومعنى انقطاعهم عن هذه اللغة وجهلها الانقطاع عن ثقافتهم وماضيهم ، فاعتبروا بحق الغاء هذه اللغة في المدارس قضاءا على قوميتهم وثقافتهم وخصائصهم وكيانهم ، فاحتجوا ضد هذا الموقف الذي تقفه الحكومة نحو هذه اللغة المعترف بها رسميا ، الواسعة الانتشار ، الحيّة السائدة التي يتكلم بها ملايين من أهل البلاد فأصدرت الحكومة المركزية قرارا يقول :

« ينبغي أن تكون اللغة التي يتكلم بها الطفل والتي هي لغة أبويه أداة التعليم والامتحان في مدرسته ، وإذا كانت لغة الطفل تختلف عن لغة المنطقة واللغة الرسمية ويرغب عدد من التلاميذ لا يقل عن أربعين في المدرسة وعن عشرة في الصف فلا بد من تعيين معلم لتعليم المواد الدراسية في هذه اللغة » .

وعلى هذا الاساس طلب المسلمون والذين يتكلمون لغة أردو طلبا بتقديم التسهيلات لتعليم أطفالهم لغة أردو وتعيين أستاذ لذلك في مواضع كثيرة ، ففي لكهنؤ وحدها قدّم أولياء التلاميذ طلبا بذلك عليه توقيعات عشرة آلاف من الاباء يطلبون من وزير المعارف تهيئة الاسباب لتعليم أردو وتعيين الاساتذة بهذه المادّة في المدارس الابتدائية التي يتعلم فيها أبناؤهم وهم حريصون على تعلم أردو ، ولكن كل ذلك لم ينفع ولم يتغير موقف الحكومة وبقيت لغة أردو ملغاة خارجة عن المناهج الدراسية المتبعة في هذه الولايات وكلما تقدم طالب الى مدير مدرسة لطلب تعيين أستاذ لتدريس أردو وتقرير دراستها اعتذر المدير بأن عدد الراغبين في ذلك لا يبلغ العدد المعين في القرار الرسمي مع أنهم يتجاوزون هذا العدد في المجموع .

وبعد كل هذه الاحتجاجات والمحاولات لم ير الناطقون بأردو والمختصون أنها حيلة غير أن يلجأوا الى مادة الدستور رقم (٣٤٧) التي تمنح رئيس الجمهورية اصدار أمر بالاعتراف

بلغة يتكلم بها عدد وجيه من أهل البلاد واستعمالها للمقاصد التي يصرّح بها الرئيس ، فبدأوا يجمعون توقيعات الافراد الذين كانوا يتكلمون أردو ويرغبون في أن يدرسها أبناؤهم وكانت حملة ثقافية منظمة تحت إشراف جمعية ترقية أردو (أنمجن ترقى أردو) شملت مديريات الولاية الشمالية وتأسّست لها فروع ومراكز في هذه المديريات والمناطق ، وكانت مع ذلك حملة هادئة تعتمد على الوسائل الادبية وحدها ولم تستعن بوسائل العنف والتهريج والارهاب ، ولا بالأساليب السياسية ونجحت هذه الحملة فوقع مليونان وخمسون ألفا من الرجال البالغين وأكثر من مليونين من غير البالغين يطلبون أن يعترف بأردو كلغة من لغات المناطق في الولايات الشمالية ، وأن يسمح بأن تكون أداة التعليم للاطفال الذين يتكلمون بها ،وأن يطبق قرار الحكومة المركزية لتعيين أستاذ للتعليم في أردو واذا بلغ عدد التلاميذ الراغبين في ذلك العدد المطلوب المعين في القرار .

وتشكل لهذا الغرض وفد وجيه يشتمل على كبار رجال الثقافة من المسلمين والهندوس يزور رئيس الجمهورية الهندية ويقدم هذا الطلب الذي يشتمل على أكثر من مليونين من التوقيعات ولعله أكبر طلب يتحلى بتوقيعات أكبر عدد من الجمهور يقدم الى رئيس حكومته ، وكان رئيس هذا الوفد الدكتور ذاكر حسين من رجال الثقافة العالميين ومدير جامعة عليكره سابقا وحاكم

ولاية « بهار » حاليا ، وقد زار هذا الوفد رئيس الجمهورية .... في دهلي الجديدة ، وطلب زيادة على الاعتراف بلغة أردو واستعمالها في المدارس قبول الطلبات التي تكتب في لغة أردو في محاكم الولاية الشمالية وادارتها واصدار البلاغات ، والمطبوعات الرسمية في أردو كذلك ، وتشجيعها واعطاء الجوائز لمؤلفيها وأن تحتضنها المجامع العلمية الرسمية ، كما كان الوضع في السابق ، وأن تعاد أردو الى اعتبارها ومكانتها السابقة في دوائر الحكومة ، وتكوّن هذا الوفد باثني عشر عضوا نصفهم من كبار المثقفين الهندوس .

وقد قابل رئيس الجمهورية هذا الوفد الموقر وأصغى الى مطالبه وأبدى عنايته لقضيته وعطفه عليها ، ولكن لم يتغير الوضع ولم يحدث شيء جديد ، يطمئن إليه أصحاب قضية أردو والمشفقون على مستقبلها ، وظلت – ولا تزال – هذه اللغة مجفوّة مطاردة في وزارة المعارف وفي المدارس الرسمية ولا يزال أبناء الطوائف والعناصر التي تتكلمها محرومين ممنوعين من دراستها في المراحل الابتدائية وبذلك يزدادون بعدا عن ثقافتها وينشأون على جهلها حتى انقطعت صلتهم عن ثقافتهم القديمة وعن ماضيهم وعن عقيدتهم وشريعتهم التي يدينون بها حتى بدأ يظهر جيل جديد لاصلة بينه وبين الاجيال القديمة ينشأ بعيدا عن محيطه الديني والثقافي ويصعب عليه الاتصال به ان حاول ذلك ، فقد انهدمت القنطرة التي يعبر عليها الى ثقافته وانقطع الخيط الذي يربطه

بماضية وأسلافه ، مشكلة معقدة طريفة يقابلها المعلمون في بلادهم الأم ومهدهم ، ونذير بين يدي خطر شديد ومستقبل رهيب ،ولا شك أن الوعي السياسي والقومي سيحل هذه المشكلة ويطبق الدستور بأمانة ، ويتخلّصُ المسلمون والطوائف الاخرى عن هذه الازمة التي كانوا في غنى عنها ، وكانت البلاد في حاجة الى ثقة تسود ونشاط يعم وتعاون يشمل ،ولا يكون ذلك الا اذا اطمأن كل عنصر من عناصر الجمهورية الهندية الى مستقبله الثقافي والديني وجرّب أنه ليس في الهند الحرّة الديمقراطية استعمار ثقافي ، وليس للغة وان كانت لغة الاكثرية أو لغة الهند الرسمية أن تنشأ وتسود على حساب اللغات الهندية الاخرى ، وأن تبتلعها وتقوم على أنقاضها ، فقد كانت حرب التحرير والكفاح الوطني الموحد على أساس ضمان الحقوق وكفالة الحرّيات ــ الدينية والثقافية ــ وقد شارك فيها كل عنصر وهو يؤمن بأنه سينال بعد الاستقلال والحكم الذاتي حرية العقيدة والثقافة ومحيطا تتحقق فيه أمانيه ومطامحه تحققًا لم يكن اليه سبيل في عهد الاستعمار والعبودية ويعيش كل عزيز مقدس من عقيدة وحضارة وثقافة وآداب .

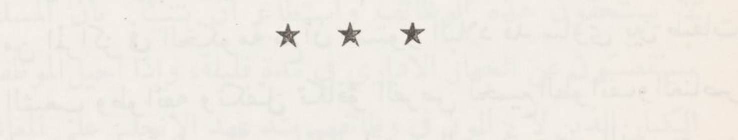
المشكلة الرابعة هي المشكلة الاقتصادية ، فمما قررته فلسفة التاريخ وأثبتتها تجارب الامم أن الحالة الاقتصادية لها تأثير كبير في مستوى عقلية الشعب وصحته ومواهبه وذكائه وطموحه .

فالازمة الاقتصادية والفقر الذي يعانيه الشعب وما ينتجه من سوء التغذية ، والحرمان من الفرص ، واليأس من المستقبل ، وفتور الهمة ، والاعتزال عن الوظائف الكبيرة ، يؤثر في الشعوب تأثيراعميقا ، وينزلها من مستوى الشعوب الراقيةالذكية الطامحة الى مستوى الشعوب المنحطة الخاملة ، وطبقة المنبوذين ، وقد كانت موارد المسلمين المهمة الى عهدالحكومةالانجليزية،الاقطاعية، والملاّكية ، والوظائف الحكومية ، والتجارات الكبيرة ، وقد ألغيت الملاكية بعد التقسيم ، ولا تخلو هذه الخطوة الجريئة من اصلاح وفوائد للمجتمع الهندي، أما الوظائف الحكومية فقد بدأ قسط المسلمين منها يقلّ ويضعف ، حتى أصبحت نسبة ضئيلة تنذر بتطور خطير في أوضاع المسلمين الاقتصادية والاجتماعية ومن اطّلع على أعداد المنتخبين للوظائف خصوصا في الجيش والشرطة والوظائف الرئيسية ، التي تطلع في الصحف بين حين وآخر وقارن بينها وبين أعداد الموظفين قبل التقسيم ، اعتقد أن المسلمين قد غادروا هذه البلاد ولم يبق منهم إلاّ الأميين الذين لا يستحقون هذه الوظائف واستطاع أن يتنبّأ بأن المسلمين سيُقصَون عن الجهاز الاداري في مدة قليلة، واذا أحيل الموظفون الكبار الذين لا يزالون في وظائفهم منذ عهد الانجليز على المعاش لا يبقى في الحكومة من يمثل أربعين مليونا من المسلمين ، ومما يلقي الضوء على هذا التدهور في نسبة الموظفين المسلمين ما يثار من الاسئلة بعض الاحيان في بعض مجالس التشريع ، وما يظهر

في تقريرات الحكومة وبلاغاتها من الاعداد ، نلتقط منها مثالين فقط ، منهاما قيل في مجلس ولاية دهلي التشريعي « أن عـدد الموظفين المسلمين في بوليس هذه الولاية كان ١٤٧٠ قبل التقسيم وليس في البوليس الآن الا ٥٦ موظفا مسلما ، ولم ينتخب الا موظفان مسلمان بعد سنة ١٩٤٧ م » المثال الثاني ما قال وزيـر الدفاع في أبريل ١٩٥٤ م في خطبة ألقاها في جامعة عليكره ، « أن نسبة المسلمين في الجيش كانت ٣٢ في المائة قبل التقسيم وليس الآن الا اثنتان في المائة » .

ويمكن أن يقاس على ذلك الوظائف المهمة الرئيسية مع أن المسلمين لم يفقدوا ذلك الذكاء وتلك المواهب التي اشتهروا بها في القديم واستحقوا بها ثقة الحكومات ، وتقلّد المسئوليات ، ولا يزال عدد المتعلمين فيهم يزداد ويتضخّم والعصر عصر التعليـم والثقافة ، وهذا من أسباب انتقال عدد كبير منهم الى باكستـان خصوصا الشباب المثقفين الذين يحرزون الشهادات العالية فـي العلوم والآداب ويثبتون نبوغهم وبراعتهم ثم لاينالون مايستحقون من المراكز في الحكومة مع أن دستور البلاد قد ساوى بين طبقات الشعب وطوائفه وتكفّل تكافؤ الفرص لجميع الطوائف والعناصر في الجمهورية الهندية ، والمساواة بين الحقوق وهو الذي يضمن زوال هذا الوضع وعدم بقائه لأنه وضع مضادّ للدستور ومناف للجمهورية إذاسرت روحها في طبقات الشعب وتغلغلت في المجتمع وزالت رواسب العهد الماضي .

هذه رؤوس المشكلات التي يعانيها الشعب المسلم الهندي في هذه الفترة التي لا بد منها لكل بلد بقي تحت الحكم الاجنبي مدة طويلة ، ولم يسغ الجمهورية إساغة كاملة ولم يتعودها بالمعنى الصحيح ، ولكن هذه الفترة لا تطول لانها غير صالحة للبقاء في هذا العصر المتحرر الجمهوري ، وسيغلب العقل على العاطفة والوعي السياسي على العصبية الطائفية ، والعقلية الضيقة ، حينئذ تنحل هذه المشكلات وينال الشعب الاسلامي كل ما يستحقه من الحرية والكرامة والمساواة كجزء من أجزاء هذا الوطن العزيز وركن من أركان هذه النهضة المباركة ، إذا أثبت جدارته واستقامته وصبره واعتماده على الله ، ولله الامر من قبل ومن بعد ، ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله .



شعب يُقرر .... ويعاهد الله

((نختم هذا الكتاب بالكلمة التي ألقاها المؤلف في موءتمر التعليم الاسلامي (الذي انعقد في ٤ و ٥ من يونية عام ١٩٦١ م في لكهنؤ تحت رئاسته)في جلسته الاخيرة ، وهي تحدد موقف المسلمين في الهند ومركزهم وتنير الطريق لهم وهي من خير ما يختم به هذا الكتاب)) .

أيها السادة : نحن الآن في الجلسة الاخيرة من جلسات المؤتمر وسترجعون إلى بلادكم ومراكزكم ، وأحرص على أن لا ينفضّ هذا المجلس إلا وأنتم تحملون رسالة معكم ، ولا تقوموا من هذا المجلس الا بعد ما عاهدتم الله وأخذتم من نفوسكم ميثاقا ترتبطون به في حياتكم ، وإنّ مستقبلنا يتوقف على هذا الميثاق .

إن لهذا الميثاق جزئين ، أولهما ، أن نؤمن بأن هذه البلاد ــ الهند ــ هي بلادنا ووطننا ، وسنعيش فيها كأبناء وحقّنا على هذه البلاد لا يقل عن حق أكبر مواطن وأقدم مولود فيها ، وليس لأعظم شخصية في ربوع الهند ، سواءا كان رئيس الجمهورية الهندية أو رئيس الوزارة أن يدّعي أن حقه على هذه البلاد يزيد على حقنا ، فهذا البلد حبيب الى نفوسنا ونحن حرسة دستوره لا نسمح بخيانة فيه ، أو مؤامرة ضده ، إن كل شبر من أشبار هذه الارض الواسعة الجميلة يحمل ذكرياتنا الخالدة ، ويشهد بعهدنا الجميل الزاهر ، ومواهبنا النادرة وإنتاجنا الضخم . لقد

كانت همتنا لهذه البلاد ونصيبنا في ترفيهها وترقيتها وتزيينها يفوق نصيب كل شعب حكم هذه البلاد ، لقد ولدت هذه البلاد في عهدنا ولادة جديدة ، ووصلت الى أوج الحضارة والتمدن ،ومن أراد أن يعرف ما نقله المسلمون إلى هذه البلاد من ثمرات الحضارة ونتاج العقول وما أضفوا عليها من الجمال والكمال فلينظر الى ما كانت عليه قبل دخول المسلمين ، ثم يقارن بين ذلك وبين ما تجملت به بعدما استمر الحكم الاسلامي مدة من الزمان وما هي عليه الآن ، فهذه البلاد بلادنا ، إنه وكرنا الذي نأوي إليه ونطير منه وحقنا عليه حق الطائر على عشه ، وعلى روضته التي ولد وعاش فيها يتمتع بأنهارها وأشجارها ويتغنى بأزهارها وأثمارها ، يجلس على أي غصن شاء ويطير في الاجواء في حرية وانطلاق ومن غير خوف وإشفاق ٠

فوطنيتنا صادقة ، وحقوقنا المدنية لا تتحدى ولا تناقش ، يجب أن تكون هذه عقيدتكم ، وأن تكونوا من ذلك على ثقة ووضوح ، لا يخالجكم في ذلك تردد واضطراب ، ولا يساوركم فيه خوف أو ارتياب ، نحن أبناء الهند ، وسنعيش فيها كأبناء وأصحاب البلد ، وسنسهم في تقدمها ورقيها وتحقيق مشاريعها العمرانية ورفع مكانتها السياسية بكل نشاط وحماسة وبكل رغبة وسرور ، وسنظل محافظين على كرامتها وشرفها وروح دستورها ، وسنقوم بواجبنا وإن تخلف عن أداء الواجب كل

هندي وكل مواطن، فنحن أبناء بررة وقوم أشراف ومواطنون أوفياء ، هذا هو الميثاق الذي أخذناه من نفوسنا ، ونريد أن نجدّده في هذا المجلس .

والشطر الثاني من هذا الميثاق ، أننا عاهدنا أن نعيش في هذه البلاد بكل خصائصنا المليّة وحضارتنا الاسلامية وشعائرنا الدينية وبأخلاقنا الاجتماعية وبشخصيتنا المسلمة ، لا تتخلى عن شعيرة من شعائرها ، ولا تتنازل عن جزء من أجزائها ، يحرم علينا أن نعيش مجرّدين عن هذه الخصائص وعن هذه الحضارة وعن هذه الشخصية ، ولا لذّة في الحياة ولا خير فيها بعد ذلك ، فإذا لم يكن لنا أن ننقل عقيدتنا وتراثنا الحضاري إلى أجيالنا وأولادنا ، وأن نعلمهم كما تفرضه علينا مبادئنا وعقائدنا الاسلامية، وإذا لم يكن لنا كذلك أن نقرّ عينا باسلاميتهم ونشأتهم الدينية ، فليست هذه الحياة حياة الأشراف الاحرار فضلا عن أن تكون حياة المسلمين الابرار ، إنما هي حياة البهائم والسائمة ، حياة الثيران والحمير والكلاب ، إن الكلب يكفيه أن ينال راتبه من أكل وشرب ، وأن يكون مصونا عن الاعداء ، وأن يكون حرّا في الانتاج ، وأن ينال شبعه وريّه على يد سيده ، وكذلك يكفي الثور أن ينال علفه وأن يكون آمنا في مربطه أو حرًّا في غابته ، فاذا تم له ذلك طابت حياته ، وتحققت رغباته ، وكملت حريته ، ولا يفكر في تربية أولاده على أسلوب خاص ، ولا يفكر في عقيدة ينقلها الى أولاده أو يأخذها بها ، حتى اذا مُنع من ذلك وحُرِم

فرصه ووسائله ثار واضطرب وتكدر عيشه .

ولكن الانسان يختلف عن ذلك كل الاختلاف ، فلا يكفيه أن يقطع له من الرزق ، أو يأتيه رزقه رغدا ، ويرتب له غذاؤه وقوته ، ومالا يعيش بغيره ، وأن يحفظ من الاعتداء على النفس والعرض والمال ، إنه يريد أن يضمّ الى ذلك حرية تربية أولاده وتعليمهم ، وأن ينقل اليهم عقيدته وعقليته وثقافته وما يؤمن به من مبادىء ، ويتمسك به من أصول ، ويستميت في سبيله من دين ، وأن يرى أولاده وخلفاءه وأفلاذ كبده على الطريق الـذي اختاره لنفسه وآثره على غيره ، لا تسلط عليه عقيدة يكفر بها ، ولاثقافة يعارضها ، لا يملك من أولاده ومستقبلهم وسيرتهم شيئا ، يراهم يرتدّون على دينه وينسلخون عن حضارته ، ويتجردون عن خصائصه ، فلنعاهد الله على أن نعيش عيش الاشراف الاحرار ، عيش بني آدم الذين أكرمهم الله بالانسانية ولا نعيش عيش البهائم الداجنة أو الكلاب المقتناة ، ولا نقتنع بحرية الاكل والشرب ، وضمانة الرواتب وتكافؤ الفرص في قضاء مأرب النفس وتربية الاجسام وتولي الوظائف فحسب ، إننا نرفض هذا الاسلوب من الحياة ، وهذا المنهج من التفكير ، وهذا النوع من الحرية ، وهذا القدر من الوطنية .

سادتي : إن في هذه البلاد منبوذين ينحدرون من الشعوب التي استعبدها الذين فتحوا هذه البلاد قبل آلاف من السنين واضطروهم إلى أن يعيشوا في ظلم وفقر وضعف وسخرية يتنجس الانسان

اذا مسهم ويعاب اذا جالسهم ، ويعاقب اذا واكلهم ، ان هؤلاء الاشقياء جنوا على أنفسهم يوم دخل هذه البلاد الفاتحون من أواسط آسيا جناية يحتملون جريرتها الى هذا اليوم وسيتحملونها الى قرون وآلاف من السنين ، كان ذلك أنهم آثروا حياة الذل على موت الشرف ، إن الشعوب تخطىء مرة وتعاقب لآلاف من السنين ، لا نريد أن نرتكب هذا الخطأ ، اننا نعاهد على أن نعيش في الهند حياة كريمة شريفة ، لاحياة الكلاب ولا حياة المنبوذين ، إننا لانعيش فيها حياة العبيد ، إننا أبناء هذه البلاد ، لنا من الحقوق والحظوظ ما لغيرنا اننا بناة هذه البلاد ومن مؤسسي حضارتها ، وأصحاب الفضل عليها ، وليس لقوة في العالم أن تسلبنا هذا الحق الطبيعي ، وهذا الحق الدستوري ، لقد انقضى عهد الاستعباد والاستعمار ، وليس لشعب أن يستعبد شعبا آخر ، وليس لحضارة أن تقتل حضارة أخرى ، وليس للغة أن تقضي على لغة أخرى ، وقد أصبح العالم اليوم أسرة واحدة لا يخفى ظلم أو اضطهاد في قطعة أو بقعة لقد استيقظ الضمير العالمي فاذا ظلم السود في أفريقيا أو الملونون في أمريكا صرخ الضمير العالمي وثار الرأي العام ، إننا نحن المسلمين ـ بصفة خاصة ـ أسرة عالمية منتشرة في الارض مرتبطة بالعقيدة والدين والاخوة الاسلامية ، ولنا إخوان في جميع بقاع الارض يتألمون بألمنا ، إننا سنحارب كل ظلم ، وكل ثورة على الدستور ، اننا أمة لا تزال تملك تلك المواهب العظيمة التي خدمت بها الانسانية

وهذه البلاد ، إننا لم تفلس في عقولنا وفي أخلاقنا إن سحابتنا التي هطلت على الارض لم تصبح جهاما ، انها لا قحة غنيّة بالماء والخصب .

سادتي : ان الانسان كثيرا ما يصاب بضعف أو وهن في قرارة نفسه ويتصور مشكلة ويتخيّلها ، ثم يراها في الخارج ، وقد يجفل الانسان من ظله ويذعر من خياله ولا حقيقة له ، ولا وجود في الخارج ، إن قضية التعليم أيها الاخوة سهلة واضحة إذا واجهتموها بشجاعة وقوة وعزم وصرامة ، فقد نص الدستور أن لكل طائفة في هذه البلاد أن تعلم أبناءها دينها ، وعقيدتها المختارة ، وليس للحكومة أن تعطل مؤسسة أو مدرسة أو تقطع عنها المساعدة على أساس أنها تعلم الدين ، فادفعوا التردد وعاهدوا على أنكم تعيشون في هذه البلاد حياة الاشراف الاحرار ، حياة المسلمين بايمانهم وعقيدتهم ، وثقافتهم وحضارتهم وتعليم أولادهم محافظين على خصائصهم وشخصيتهم ، لقد كان لا بد لكم أن تعاهدوا على ذلك ما دمتم مسلمين ، وتتحملون في ذلك كل ما يواجهكم من صعوبة ومحنة ، ولكن من سعادتنا أن دستور البلاد يكفل ذلك ويضمن الحقوق المدنية والمساواة لجميع المواطنين وجميع الطوائف والاديان في هذه الجمهورية العلمانية ، وأن تقوموا بأعباء تعليم أولادكم التعليم الاسلامي الديني وتكاليفه ، لان الحكومة لا دين لها ، وأنها لا تستطيع أن تقوم بتعليم الاديان للطوائف ، وأن تعتبروا ذلك من أهمّ واجب عليكم ، وحاجة أشد من حاجة أولادكم الى الطعام ، والكسوة والتعلم

والعلاج ، فان دينكم يحتمه عليكم ويجعلكم مسئولين عنه في الدنيا والآخرة .

إننا أيها الإخوة في هذا الثلث الاخير من الليل الذي تنزل فيه رحمة الله ويجاب الدعاء ، وتصفوا القلوب نعاهدبكل إخلاص أننا سنبقى في هذه البلاد باسلاميتنا وإسلامية أجيالنا القادمة ، ونبذل في هذا السبيل كل رخيص وغال ، ونحمل السراءوالضراء ونكون من إحدى الطائفتين اللتين ذكرهما الله تعالى في سورة الأحزاب .

((من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، فمنهم من قضى نحبه ، ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا)) .

ابو الحسن علي الحسني الندوي



فهارس الكتاب

ويتضمن :

((فهرس الاعلام))

فهرس الكتب والمجلات والصحف

الواردة في هذا الكتاب

الصوفية في الهند وتأثيرهم في المجتمع (١)

تعريب : محمد الحسني

« مقال تاريخي يبحث عن تأثير الدعاة الى الله ، والمربين الروحيين (الذين يسمون غالبا بالصوفية) في الاخلاق والسلوك ، وفضلهم في محاربة الفساد في البلاد ، وتكوين المجتمع الاسلامي الهندي الصالح ، الذي استطاع أن يعيش سبعة قرون في وسط الوثنية البرهمية والملوكية المستبدة ، بصرف النظر عن أساليبهم وتقاليدهم ومن غير موافقة عليها ، والشيوخ الذين جاءت اسماؤهم في هذا المقال ، تحقق في التاريخ التزامهم للعقيدة الاسلامية الصحيحة وحرصهم على اتباع السنة وغيرتهم على الدين » .

ان طرق التصوف الاساسية المشهورة ظهرت خارج الهند ، ولكنها نالت أكبر قسط من القبول والانتشار ، والازدهار في هذه البلاد بسبب أوضاعها الخاصة وطبيعتها ، ثم نبعت من هذه الطرق والسلاسل فروع هندية الاصل ، واتخذت شكل طرق مستقلة بذاتها ، وبرز فيها أئمة مجتهدون أنشأوا طرقا مختلفة وأسسوها .

وبجانب تلك الطرق الصوفية المشهورة ، (مثل الطريقة

---

(١) وصلنا هذا الفصل القيم الممتع بعد انتهاء طبع الكتاب ، وكان المؤلف يرغب أن يكون ترتيبه قبل فصل « مراكز العلم والثقافة الاسلامية في الهند » ولما رأينا تعذر تحقيق هذه الرغبة علما أن هذا الفصل يتمم موضوعات الكتاب ويعالج ناحية أساسية تتعلق بحياة المسلمين في الهند كانت مغفلة ، رأينا ضرورة الحاق هذا الفصل الى آخر الكتاب . **(الناشر)**

القادرية والحبشية والنقشبندية والسهروردية ، التي ترعرعت في الهند وازدهرت ونفقت سوقها) طرق وسلاسل أخرى ، وليدة هذه البلاد فحسب ، وهي تنتمي الى شخصيات نبغت في الهند ودفنت في أرضها ، مثل الطريقة الفردوسية والمدارية ، والقلندرية ، والشطارية والمجددية ، وهي سلاسل نشأت في الهند ، و « صدرت » بعد ذلك الى بلاد أخرى ، وقد استفاد عدد كبير من أهل الحجاز ورجال العالم الاسلامي والعربي من الشيخ علي المتقي صاحب كنز العمال في القرن العاشر ومن الشيخ تاج الدين السنبهلي والشيخ آدم البنوري في القرن الحادي عشر بعد ما هاجروا الى الحجاز واستوطنوه ، وقد أصبحت هذه البلاد (الهند) حاملة لواء التصوف واصلاح الباطن منذ بداية القرن الحادي عشر ، وزعيمها اذ ذاك ، الشيخ أحمد السرهندي ونجله وخليفته العظيم محمد معصوم اللذان أفاد منهما العالم مدة طويلة من الزمن ، وكان خلفاء الشيخ محمد معصوم منتشرين في أقطار أخرى ، كأفغانستان ، وايران ، وتركستان ، وكان الناس يشدون الرحال الى زاوية الشيخ غلام علي الدهلوي (وهو من شيوخ الطريقة المجددية في القرن الثالث عشر) من بلاد بعيدة مثل العراق والشام ومصر والصين والحبشة وبخارا وسمرقند وانتشرت هذه الطريقة بواسطة خليفته الشيخ خالد الشهرزوري في العراق وتركستان والشام وتركيا . ولاتزال باقية فيها .

وفي أوائل القرن الرابع عشر اشتهر الحاج امداد الله المهاجر

المكي بلقب « شيخ العرب والعجم » وأفاد منه كثير من أهل الحجاز والحجاج الوافدين اليه •

وما زال هذا النبراس ــ نبراس الاصلاح الباطني ــ مضيئا في العالم الاسلامي ، بفضل الهند ، ولا تزال طريقة « الحب الالهي » مستمرة باقية فيها ، وهي المرجع العالمي لهذا الفن من أجل بعض رجالاته وأعلامه •

صلة الجمهور بالصوفية والتصوف واقبالهم عليه

ان العهد الاسلامي في الهند بدأ بهؤلاء الصوفية ، وخاصة الشيخ معين الدين الاجميري ، الذي أسس الطريقة الجشتية في هذه البلاد على دعائم قوية بجهاده واخلاصه ، وأقبل عليهم الناس من جميع الطبقات ، والفئات ، يتنافسون في حبهم وصلتهم بهؤلاء المرشدين رجال الله والدعاة اليه باخلاص وصدق وأمانة ونزاهة ، وامتدت في طول البلاد وعرضها شبكة من المراكز الروحية حتى لم يبق بلدأو قرية ذات شأن الا وفيها مركز روحي أو عدة مراكز •

ان الصلة القلبية والروحية وموجة الحب والاجلال التي كانت تغمر الناس نحو هؤلاء الشيوخ والصوفية تتجلى بالاحداث التالية التي نسردها في هذا المكان من غير أن نراعي فيها الترتيب التاريخي •

كان السيد آدم البنوري دفين البقيع (م ١٠٥٣ هـ) يأكل على مائدته كل يوم ألف رجل ، ويمشي في ركابه ألوف من الرجال ومئات من العلماء ولما دخل السيد في لا هور عام

(١٠٥٣ هـ) كان في معيته عشرة آلاف من الاشراف والمشائخ وغيرهم حتى توجس شاهجهان ملك الهند منه خيفة فأرسل اليه بمبلغ من المال ثم قال له: «قد فرض الله عليك الحج فعليك بالحجاز» فعرف ايعاز الملك وسافر الى الحرمين حيث مات.

وهذا الشيخ محمد معصوم (م ١٠٧٩ هـ) ابن الشيخ الكبير أحمد السرهندي قد بايعه وتاب على يده تسع ماية ألف من الرجال واستخلف في دعاء الخلق الى الله وارشاد الناس وتربيتهم الدينية سبعة آلاف من الرجال[١].

وكتب سيد احمد خان مؤسس الجامعة الاسلامية في عليكره في كتابه «آثار الصناديد» يذكر الشيخ غلام الدهلوي فقال:

«لا يقل عدد المقيمين في هذه الزاوية عن خمس ماية رجل تقوم الزاوية بنفقاتهم» وهكذا كان الاقبال على المصلح الكبير السيد أحمد الشهيد اقبالا منقطع النظير، انه لم يمر ببلدة الا وتاب عنيه وبايعه عدد كبير من الناس حتى ان المرضى في مستشفى بنارس أرسلوا اليه يقولون: «انا رهائن الفراش وأحلاس الدار فلا نستطيع أن نحضر فلو رأى السيد أن يتفضل مرة حتى نتوب على يديه لفعل» وذهب السيد وبايعهم.

وأقام في كلكته شهرين، ويقدر أن الذين كانوا يدخلون في البيعة لا يقل عددهم عن ألف نسمة يوميا، وتستمر البيعة الى

---

(١) نزهة الخواطر. ج٥. للشيخ عبد الحي الحسني.

نصف الليل ـ وكان من شدة الزحام لا يتمكن من مبايعتهم واحدا واحدا فكان يمد سبعة أو ثمانية من العمائم والناس يمسكونها ويتوبون ويعاهدون الله ، وكان هذا دأبه كل يوم سبع عشرة أو ثماني عشرة مرة .

ان هؤلاء الصوفية كانوا يبايعون الناس على التوحيد والاخلاص واتباع السنة، والتوبة عن المعاصي، وطاعة الله ورسوله ، ويحذرون من الفحشاء والمنكر والاخلاق السيئة والظلم والقسوة، ويرغبونهم في التحلي بالاخلاق الحسنة والتخلي عن الرذائل (مثل الكبر والحسد والبغضاء والظلم وحب الجاه) وتزكية النفس واصلاحها ، ويعلمونهم ذكر الله والنصح لعباده والقناعة والايثار ، وعلاوة على هذه البيعة التي كانت رمز الصلة العميقة الخاصة بين الشيخ ومريده أنهم كانوا يعظمون الناس دائما ويحاولون ان يلهبوا فيهم عاطفة الحب لله سبحانه ، والحنين الى رضاه ، ورغبة شديدة لاصلاح النفس ، وتغيير الحال ، فالى أي مدى كان تأثير اخلاقهم واخلاصهم ، وتعليمهم وتربيتهم ومجالسهم في المجتمع والحياة ، نقدم هنا بعض الامثلة التي تلقي الضوء على هذا الواقع التاريخي .

كتب مؤرخ الهند الشهير القاضي ضياء الدين البرني يذكر عهد السلطان علاء الدين يقول : « كان شيخ الاسلام نظام الدين وشيخ الاسلام علاء الدين وشيخ الاسلام ركن الدين من أعلام

التربية الروحية والاصلاح في عهد السلطان علاء الدين ، تنور بهم العالم ، وبايعهم خلق كثير لا يحصون ، وتاب على أيديهم الفسقة والفجرة ، وواظبوا على الصلاة ، وعضوا عليها بالنواجذ طول حياتهم ونشأ فيهم حب الدين واجلاله ، وصحت توبتهم ، والتزموا العبادات كلها ، وتضاءل حب الدنيا في قلوبهم ، وذلك بتأثير أخلاقهم السامية الكريمة ، وعزوفهم عن الشهوات وترك المألوفات ، وانتشر الصدق في الناس ببركة عبادتهم وسلوكهم في الحياة ، ونشأ فيهم ــ بتأثير مكارم أخلاقهم ومجاهداتهم ــ رغبة في اصلاح أخلاقهم وتغييرها .

وكتب يقول :

« ان السنوات الاخيرة من عهد علاء الدين تمتاز بأن كسدت فيها سوق المنكرات من الخمر والغرام والفسق والفجور والميسر والفحشاء بجميع أنواعها ، ولم تنطق الالسن بهذه الكلمات الا قليلا وأصبحت الكبائر تشبه الكفر في أعين الناس وظل الناس يستحيون من التعامل بالربا والادخار والاكتناز علنا ، وندرت في السوق حوادث الكذب والتطفيف والغش »[1] .

وكان لهؤلاء المشائخ عناية كبيرة بالاخلاق والسلوك والمعاملات وتأدية الحقوق وقضاء الديون ، وكانوا يوصون من يدخل في بيعتهم بالعناية البالغة بهذه الامور وقد أوصى

---

(١) فوائد الفواد ص ١٤

الشيخ نظام الدين شيخه فريد الدين كنج شكر أن لا يدخر وسعا في ارضاء الخصوم واصحاب الحقوق وكان عليه ٢٠ جيتل (فلس) لشخص ، كما استعار كتابا من شخص آخر فضاع ذلك الكتاب ، فلما زار دهلي وذهب الى الشخص الاول قال « يبدو أنك قادم من عند المسلمين » ولما زار الشخص الثاني قال « ان هذه الاخلاق ليست الا نتيجة ذلك المكان الذي كنت فيه » .

ان تربية هؤلاء الصوفية والمشائخ ومجالسهم كانت تنشىء في الانسان رغبة في افادة الناس وحرصا على خدمتهم ومساعدتهم .

كان السيد أحمد الشهيد أثناء سفره للحج مع ركب كبير ولم يضيع فرصة لخدمة الناس في هذه الرحلة الطويلة الشاقة ، ان هذه الرحلة كانت عن طريق نهر « كنج » بالسفن وحدث أن وجدوا على ضفة مرزابور سفينة مشحونة بالقطن ، وكان صاحب القطن ينتظر الحمالين ليحملوا ذلك القطن الى مخازنه ، فأمر السيد أصحابه بنقل تلك الحزمات ، فهجم على السفينة مئات من الناس ، وفي دقائق وثوان أفرغوا السفينة وحملوا القطن الى مكانه ، فاعجب الناس بذلك وتهامسوا فيما بينهم قائلين « لم نر كاليوم ، ان هؤلاء ليست لهم معرفة ولا صلة بصاحب القطن ،

ولم يطلبوا الاجر ، وقاموا بهذا العمل لوجه الله ، انهم من أولياء الله من غير شك » [1] .

إن الحديث عن هؤلاء الصوفية والمشائخ بأدوارهم التاريخية والترتيب التاريخي لا محل له ههنا ، وهو يحتاج الى مجلد ضخم ، فان سهم هؤلاء المصلحين ومعلمي الاخلاق في تكوين مجتمع صالح واع في الهند (وهي قوة هذه البلاد المعنوية الكبرى ، ومصدر الولاة الصالحين والحكام العادلين في كل عهد ، وهو الذي منح الهند أفرادا أذكياء أكفاء في ظروف دقيقة حرجة جدا) سهم أساسي أكثر من سهم أي واحد من أبناء هذه البلاد وبناتها .

وبصرف النظر عن القرون الوسطى التي تبعثرت مادتها الواسعة في تراجم المشائخ نكتفي هنا بذكر مصلح كبير في القرن الثالث عشر وهو السيد أحمد الشهيد وتأثيره الديني والاجتماعي كمثال لهذا التأثير والنفوذ في المجتمع والحياة ، فقد ذكر المؤرخون أنه لما أقام مع أصحابه في كلكته ـ في طريقه الى مكة المعظمة ـ واشتغل هو وبعض أصحابه من العلماء كالمصلح الكبير الشيخ اسماعيل الشهيد بالوعظ والتذكير ، وتقاطر الناس على السيد للبيعة والتوبة عن المعاصي « كان تأثير هذه المواعظ

---

(١) سيرة السيد أحمد الشهيد ص ٢٤٩

ودخول الناس في الدين وانقيادهم للشرع أن تعطلت تجارة الخمر في كلكته ـ وهي كبرى مدن الهند ومركز الانجليز ـ كسدت سوقها واقفرت الخانات ، واعتذر الخمارون عن دفع ضرائب الحكومة متعللين بكساد السوق ، وتعطل تجارة الخمر »[1] .

انها كانت نتيجة أخلاق هؤلاء المصلحين والدعاة والصوفية والمشائخ وروحانيتهم ، أن اهتدى بهم في هذه البلاد الواسعة عدد هائل من الناس ، وتابوا عن المعاصي والمنكرات واتباع الهوى لم يكن بوسع حكومة أو مؤسسة أو قانون أن يؤثر في هذه المجموعة البشرية الضخمة ويحيطها بسياج من الاخلاق والمبادىء الشريفة لزمن طويل .

كلمة حق عند سلطان جائر

وكان من مآثر هؤلاء المصلحين الروحيين الكبرى أنهم قاوموا أحيانا كثيرة اتجاهات بعض الملوك الخطرة وأنقذوا الدولة والمجتمع من بعض الاخطار الهائلة المحدقة بها ، والتدمير الذي كان يواجهه ويهدده ، وذلك بابداء آرائهم بصراحة ، وانتقاد التيارات الفاسدة ، وانحراف « البلاط » عن جادة الحق والصواب ، ان تربيتهم وأمثلتهم العملية الحية ألهبت في الناس جذوة الجراءة

---

(١) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ص ٢٤٠ الطبعة الرابعة

والشجاعة ، والنشاط والطموح ، وتاريخ الهند الاسلامي زاخر بهذه الامثلة ، ان هؤلاء المشائخ غامروا مرارا بحياتهم وشرفهم ، وآثروا الموت على الحياة وعملوا بمبدأ « أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر » كلما دعت اليه الحاجة واقتضته الظروف .

ونقدم في هذا المكان مثالين من عهد « الملك الجبار » محمد تغلق ، يدلان على شجاعتهم وصرامتهم واستهانتهم بمظاهر الابهة والغطرسة ، واحتقارهم للقناطير المقنطرة من الذهب والفضة .

« لما مر السلطان محمد تغلق بزاوية الشيخ قطب الدين منور ، كان شيخا كبيرا في الطريق الجشتية يعيش في عزلة عن الناس لم يحضر عند السلطان لتحيته فطلبه السلطان في دهلي ، ولما حضر البلاط ودخل الديوان رأى الامراء والوزراء والحكام ورجال البلاط واقفين سماطين ، متخشعين مسلحين في هيئة تنخلع منها القلوب ، وكان معه ولده نور الدين ، وكان حديث السن لم يزر « بلاط » الملك في حياته ففزع لهذا المنظر الغريب وامتلأ رعبا ، فناداه الشيخ قطب الدين بصوت عال قائلا ياولدي العظمة لله ! يقول نور الدين اني استشعرت في نفسي قوة غريبة بعد هذا النداء ، وزالت الهيبة من نفسي وذابت ، وبدا الجميع عندي كأنهم قطيع من ضأن أو معز ، وسأل الملك الشيخ وعاتبه قائلا « اننا مررنا بزاويتكم فلم تشرفونا بزيارتكم وموعظتكم »

فأجاب الشيخ ان هذا الفقير لا يجدر بمقابلة الملوك ، انه يعيش في عزلة ، ويدعو للملك ولجميع المسلمين فعليكم أن تعذروا في هذا الامر ، وبعد انصرافه قال الملك لوزرائه ، انه صافح كثيرا من الشيوخ والعلماء فكانت أيديهم ترتعش خوفا واشفاقا ، أما هذا الشيخ فما وجدت في كفه لينا وضعفا ، وما رأيت في يده ارتعاشا بل صافحني بقوة وحرارة زائدة واعتزاز نفس .

وقدم اليه الملك ماية ألف « تنكه » « قطعة ذهب » فقال الشيخ سبحان الله ، تكفيني أقتان من أرز ، وسمن بفلس واحد ، ماذا أفعل بهذه الالاف من الروبيات ، ولكن قيل له ان الملك يسخط اذا لم يقبل هذه الهدية ، وينقم منه ، فقبل الشيخ ألفي روبية وقسمها بين اخوانه وأصحابه وذوي الحاجة [1] .

والمثال الثاني للشيخ فخر الدين الرازي ، وكان الشيخ يتحرز من مقابلة الملوك ، وكان يقول انني أرى رأسي مفصولا عن جسمي واقعا على بلاط الملك ، وكان يعني أنه سيقول كلمة حق يؤاخذه عليها الملك ويأمر بضرب عنقه ، فطلبه الملك يوما وقال له عظني ! فقال الشيخ : إكظم الغيظ واملك غضبك وسورة النفس ، فقال الملك أي غضب وسورة نفس تعني ؟ قال سورة السباع ، فاحمر وجه الملك من فورة الغضب ولم يقل شيئا ، ودعا بالسفرة الملوكية ودعاه الملك لتناول الغداء ، وكان يضع بعض اللقمات في

---

(١) سير الاولياء ص ٢٥٥ ــ ٢٥٣

فيه ، وتناول الشيخ هذا الطعام بكراهة ، وودعه الملك بعد فراغه[1] .

إن هؤلاء المشائخ و « الصوفية » ضربوا أمثلة رائعة في الشجاعة والصراحة والصدع بالحق ، كما أن الملوك الذين لم يغفروا للعلماء « جريمة » قول الحق سلكوا بالصوفية ــ في أغلب الاحوال ــ مسلكا رفيقا وسمحوا لهم بأداء واجبهم الديني ومزاولة نشاطهم الاسلامي ، وقد قام المشائخ بهذا الواجب في العهد الاخير وحافظوا على كرامتهم وغيرتهم وابائهم ، حضر الملك المغولي « شاه عالم » مرة في مجلس الصوفي الكبيروالشاعر الشهير الشيخ « ميردود » وكان برجله وجع فمدها قليلا ، فلم يتحمل الشيخ ذلك وقال : ان هذا الامر ينافي آداب المجلس وكرامته فاعتذر الملك وطلب العفو فقال له الشيخ ، اذا كانت بكم علة ، فلم يكن هنالك داع لحضور هذا المجلس[2] .

الزهد في زخارف الدنيا والاستهانة بمظاهر الجاه

ان الصوفية والمشائخ لم يقبلوا مناصب الحكم ، وهدايا الملوك والامراء ، من أراضي واقطاعات وصلات وجرايات ، وامتنعوا عنها دائما ، ونصبوا منارا عاليا للقناعة والزهد والتوكل والمحافظة على عزة النفس وكرامتها ، عاشت بفضله في المجتمع

---

(١) سير الاوليا ص ٢٧٢ ــ ٢٧١ (٢) كل رعنا ص ١٧١

الهنـدي الفتوة والهمة والطموح والثبات على جادة الحق ؛ وحافظوا بذلك على كرامة الانسانية وصانوا عرضها في هذه السوق السوداء التي تباع فيها النفوس والارواح بيع السلع ، وقد تباع بالمناداة و « المزاد العلني » .

لقد كان شعارهم وهتافهم دائما وفي جميع الاحوال ، ما قال قائل منهم في شعر فارسي :

« لا أحب أن أبيع خرقتي المتواضعة وثيابي البالية برايات الملوك وأعلام السلاطين ، ولا أرضى بأن أهجر « فقري » حرصا على مملكة سليمان ، ان هذا الكنز الذي اكتشفته في قلبي بفضل المجاهدة لا أريد أن أبادله برخاء الملوك وراحتهم وتنعمهم » .

ان تاريخ التصوف في الهند حافل بأمثلة رائعة من الزهد والقناعة والاعتزاز بالنفس والكرامة والطموح والقناعة والايثار، لا تخلو من هذه الامثلة طريقة صوفية في هذه البلاد ، ونقدم هنا عدة أمثلة من القرنين الثالث عشر والرابع عشر ، وهو عهد رسخت فيه أقدام المادية في الهند .

« كان الشيخ شمس الدين حبيب الله المعروف بميرزاجان جانان الدهلوي من شيوخ الطريقة النقشبندية المجددية(م١١٩٥هـ) قال له ملك الهند مرة ان الله أعطاني مملكة واسعة فأرجو أن تقبلوا منها شيئا ، فقال الشيخ : ان الله تعالى قد وصف الدنيا بالخسّة والهوان فقال « قل متاع الدنيا قليل » أما مملكتكم

فهي ولاية صغيرة من اقليم من أقاليم هذه الدنيا فلا أريـد أن أرزأكم في هذا الجزء الصغير ، وقدم اليه مرة الامير آصف جاه وزير المملكة المغولية في الهند عشرين ألف روبية فلم يقبلها فقال الأمير خذوها وقسموها على أهل الحاجة فقال اني لا أحسن هذا العمل ، فتولوا توزيعه بنفسكم فسينفد في الطريق فان بقي منه شيء فسينفد بعد ذلك .

أراد ميرخان أمير ولاية « تونك » أن يفرض راتبا سنويا لزاوية الشيخ غلام علي الدهلوي فكتب اليه الشيخ بيتا معناه :

« نحن لا نهين الفقر والقناعة ، ولا نخدش كرامتها ، قـل لميرخان ان الرزق مقدر من عند الله تعالى » .

زار حاكم كبير للحكومة الانجليزية الشيخ فضل الرحمن الكنج مراد آبادي (م ١٣١٣ هـ) وقال وقد أثرت فيه كلمات الشيخ وموعظته البليغة ، اذا قبلتم عيناً لكم مرتبا من الحكومة فقال الشيخ ما أصنع بمالكم ، انني أملك من فضل الله سريرا وابريقين من الفخار وجرتين للماء ، ويأتي بعض أصحابنا بالذرة فنصنع منها الخبز ، وتطبخ زوجتي شيئا من الخضراوات نأكل بها ذلك الخبز ، وفي ذلك كفاية .

يروي الاستاذ محب الله أن الامير كلب علي خان حاكم ولاية رامبور ، أبدى رغبته في أن يشرفه الشيخ فسأله الاستاذ المذكور

عما يقدم اليه اذا حضر ، قال أهدي اليه ماية ألف روبية ، فذهب الاستاذ الى مراد آباد وقال للشيخ ان الامير مشتاق لرؤيتكم ويقدم اليكم ماية ألف روبية اذا زرتموه ، والشيخ يتحدث كأنه لم يسمع شيئا مهما ، ثم قال يا هذا احث التراب على الماية ألف ، استمع قولي ، وأنشد بيتا معناه :

« حينما نشاهد كرمه وفضله على هذا القلب ، نجد القلب أعلى وأغلى من جام جم »[1] .

نشر العلم والثقافة

العلم كان أكبر همّ هؤلاء المشائخ وبغيتهم ، انهم حدبوا عليه وخدموه ، وكان اكثرهم صاحب ذوق أدبي وعلمي رفيع ، وكان عقيدتهم أنه لا يمكن معرفة الله سبحانه بدون العلم ، وأن الصوفي الجاهل ألعوبة الشيطان ، ولذلك نراهم لم يستخلفوا للدعوة الى الله النجباء ذوي الكفاءة والاستعداد الا بعد التحصيل العلمي .

والحقيقة أن الفضل في الحركة التعليمية والنهضة العلمية في الماضي يرجع الى تشجيع هؤلاء الصوفية والمشائخ اما مباشرة

---

(١) كأس ملك ايران القديم « جم » الذي يضرب به المثل في الغلاء والظرافة ، ويحكى أنه كان يتراءى فيه العالم .

واما بواسطة ، وكان القاضي عبد المقتدر الكندي والشيخ أحمد التهانيسري ــ اللذان انتهت اليهما رئاسة التدريس في الهند ــ من رجال الشيخ نصير الدين « جراغ دهلي » والمدرس المشهور في القرن الحادي عشر الشيخ لطف الله الكوروي الذي نفقت به سوق الدرس والتدريس الى القرن الثالث عشر كان شيخا في الطريقة الجشتية .

نحن نرى المدرسة والزاوية جنبا الى جنب في أكثر الادوار ، فالزاوية الرشيدية في جونبور ومدرسة الشيخ بير محمد في لكهنؤ ومدرسة الشيخ ولي الله بن عبد الرحيم في دهلي ، وزاوية الشيخ رشيد أحمد في « كنكوه » أمثلة رائعة للجمع بين التثقيف العلمي والتربية الروحية والخلقية .

الكفالة والمؤاساة

ومن مآثر هؤلاء المشائخ وزواياهم أنها كانت مأوى يأوي اليه آلاف من الناس ، ويجدون فيه طعامهم وشرابهم ومرافق حياتهم ، ان هذه المائدة الملوكية الفاخرة ، كانت مائدة عامة يردها الصديق والعدو القريب والبعيد ، والغني والفقير وكانت مائدة الشيخ نظام الدين مشهورة يضرب بها المثل في السعة وكثرة أنواع الطعام واللذة والتأنق .

وكان يحضر زاوية الشيخ سيف الدين السرهندي ألف وأربع مأية رجل يتناولون الطعام على مائدته صباح مساء ، كل حسب رغبته واقتراحه .

أما الشيخ السيد محمد سعيد الانبالوي وهو من رجال القرن الثاني عشر فيكتب عنه مترجمون فيقولون :

« لم يكن عدد المشتغلين في زاويته أقل من خمس مأية نسمة في الزمن الاول وهكذا فقل عن الوافدين اليه والزائرين له » .

زاره مرة روشن الدولة وكان أميرا من أمراء السلطان فرخ سير وقدم ستين ألف روبية لبناء زاويته فأمره الشيخ أن يترك هذا المال في مكان ويستريح فانصرف « روشن الدولة » فأرسل الشيخ الى الفقراء ، وأرسل هذا المال الى الايامى والمساكين وأهل الحاجة في « أنباله » و « تهانيسر » و « سرهند » و « باني بت » حتى لم يبق منه فلس ، فلما أتى روشن الدولة قال له : « لايبلغ الثواب في بناء العمارة ثواب خدمة ذوي الحاجة ، والفقراء الذين أحصروا في سبيل الله » وصلته مرة رسائل السلطان محمد فرخ سير والامير روشن الدولة ، والامير عبد الله خان ، وأمر بثلاث مأية ألف روبية فوزعها كلها في القرى المجاورة والاشراف الساكنين فيها [١] .

---

(١) نظام التعليم والتربية (الاردو) المجلد الثاني ، للاستاذ مناظر أحسن الكيلاني .

وصدق الاستاذ مناظر أحسن الكيلاني اذ قال :

« ان هذه الزوايا وحدها كانت نقطة اتصال بين الاغنياء والفقراء ، وكان منزل هؤلاء الصوفية والمشائخ « بلاطا » يدفع له السلاطين الخراج ، فقد كان يحضر ولي العهد خضر خان عند الشيخ نظام الدين ويستفيد منه ، وهكذا السلطان علاء الدين الذي كان يأتيه الخراج من الهند كلها كان مضطرا الى أن يقدم الخراج الى مكان آخر » .

ان هذه الوحدة والانسجام بين الغني والفقير أعني طبقة الصوفية والمشائخ التي كان يحضرها ويستفيد منها الاغنياء والفقراء على السواء كانت تقضي حاجات الطبقة الفقيرة ، والحقيقة أنه لم يخل دور من ادوار التاريخ الهندي ولا بلد من بلاد الهند الا وقد عمل فيه الصوفية والمشائخ بالحديث النبوي المشهور « تؤخذ من اغنيائهم وترد على فقرائهم » فكان ذلك رحمة بالفقراء والمساكين وذوي الحاجة[1] .

ملاجيء انسانية : ان تعليم هؤلاء الصوفية ومجالسهم الروحية أنشأت في الناس حب الانسان على اختلاف الديانات والثقافات والسلالات وخدمته ، وايصال النفع اليه ، ومشاركته في الهموم والآلام .

---

(١) نظام التعليم والتربية ص ٢٢ .

كان شعارهم وعملهم بهذا الحديث النبوي : « الخلق عيال الله فأحبهم الى الله انفعهم لعياله » كانت قلوبهم فائضة بالرحمة والمواساة للانسانية كلها ، حدّث الشيخ نظام الدين عن نفسه مرة فقال : يأتيني رجل ويحكي لي قصته ، وفي نفسي من الهم والالم والتوجع لحاله ما لا يجده هو نفسه (١) .

وقال مرة : لا شيء أغلى وأحب يوم القيامة من المواساة وجبر القلوب المنكسرة وادخال السرور على أصحابها (٢) .

كانت نتيجة ذلك أن جرحى القلوب والفؤاد كانوا يجدون بلسما لهمومهم وأحزانهم في هذه الزوايا وملجأ لهم ، ان حجر عطفهم وحبهم كان مفتوحا لكل من هجره المجتمع أو الاسرة أو تنكر له الحظ ، وأدبرت عنه السعادة ، ان هؤلاء الذين لم يقبلهم أبناء أسرتهم أو طردهم أولادهم بعض الاحيان كانوا يقدمون الى هؤلاء الصوفية والمشائخ ويعيشون في أحضانهم وفي كنفهم ، ويجدون فيه كل ما افتقدوه من راحة البيت وأنس الاحبة ، ويزور هذه الزوايا كل رجل مهما كان نسبه أو دينه فيجد فيها الاسعاف والرفد وخلاصا من هموم القلب وأحزانه وينال فيها الغذاء والدواء ، والحب والعطف ، والتقدير والاكرام .

لما أرسل الشيخ نظام الدين شيخه الى دهلي قال له :

---

(١) سير العارفين نسخة خطية . (٢) أيضا ص ٢٨

« ستكون كدوحة وارفة الظلال ، يستريح خلق الله في ظلها »[1] .

والتاريخ يشهد بأنه قد استراح في ظله الوارف الوافدون من دهلي ، ومن انحاء بعيدة سبعين سنة كوامل .

لقد كانت هناك بجهود هؤلاء الصوفية أشجار كثيرة وارفة الظلال في مئات من بلاد الهند استراحت في ظلها القوافل التائهة والمسافرون المتعبون ورجعوا بنشاط جديد وحياة جديدة .



(١) سير الاولياء .

فهرس المواد

تم طبع هذا الكتاب بحمد الله

في ١ رمضان ١٣٨١

٥ شباط ١٩٦٢

الكتاب التـالي

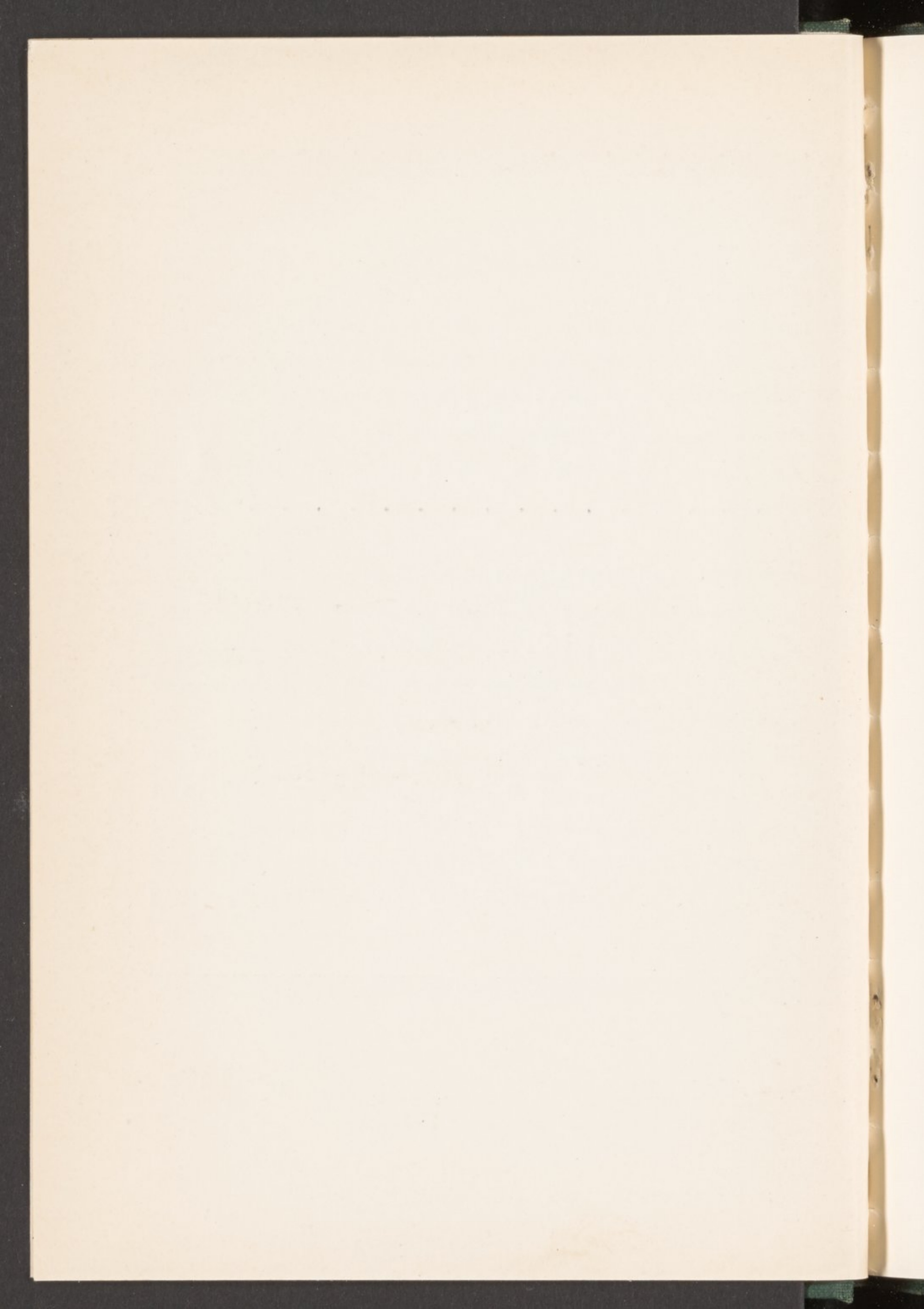
بين التصوف والحياة

للعالم الهندي الكبير الشيخ عبد الباري الندوي

أستاذ الفلسفة الحديثة في الجامعة العثمانية بحيدر آباد سابقاً

قـدم له

الاستاذ أبو الحسن علي الحسني الندوي



صورة عن المؤلف والكتاب

...... وأبو الحسن استاذ في فنون كثيرة ، في الكتابة ، وفي البحث ، وفي التاريخ ، وفي الدعوة ، وفي الفقه والنزاهة والتخلق بأخلاق العلماء ، وهو فرع كرم من أصل كريم ، أبوه مؤرخ الاسلام في الهند ، واخوه من صدور الاطباء والعلماء ، وأسرته أسرة شرف وعلم ، وهو أحد اركان ندوة العلماء ، واليها نسبته . وندوة العلماء ، أجل من أن نمر بها مرا ، ولا بد من وقفة عليها ، لنعرف بها من لايعرفها من القراء . . . .

...... ذلك يدفعني الى أن أقدم الى اخواني في الشرق العربي هذا الكتاب ، يتحدث عن الهند وعن اخوانهم فيها قديما وحديثا ، ويتناول هذا الحديث نواحي شتى في الحياة العلمية والاجتماعية والدينية ، وعما أضافه المسلمون الى ثروة الهند منذ دخولها وما أدخلوا عليها من اصلاحات وتجديدات في مختلف نواحي الحياة ، وعما أنتجه المسلمون في الهند في العلوم الاسلامية وما زادوا الى تراثها ، ومن نبغ فيها من العلماء الكبار والمؤلفين العظام ، وعن مظاهر نشاط المسلمين العلمي والديني ، ومراكزه الكبيرة في العصر الحاضر ، وعن خصائص هذا الشعب وطبيعته وشخصيته وعن ماضيه وحاضره ، وعن قضاياه الرئيسية ومشكلاته ، عسى أن يكون حلقة - ظلت مفقودة زمنا طويلا - في سلسلة تنوير الرأي العام والتزويد بالمعلومات الصحيحة وفي سبيل التعارف الاسلامي . . . . .

الثمن ١٧٥ ق.س

مطابع دار المنار - بدمشق

